امرأة فاقت الرجال

عبد الماجد الشاوي

امرأة فاقت الرجال

٢١٠,٤
٤٥ ش م

عبدالماجد الشاوي

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف : ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

امرأة فاقت الرجال

دار المجتمع

الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

بسم الله الرحمٰن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، والصلاة والسلام الأتَمّان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. . . . وبعد. .

فقد مضى على طباعة هذا الكتاب أكثر من عشر سنوات ، لم يتسنَ لي خلالها العودة إلى طباعته مرة ثانية ، إلى أن قامت دار المكتبي ـ مشكورة ـ بإعادة طباعته ، وتولت نشره وتوزيعه . لقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب حين صدوره عام ١٩٨٤ خلال شهور معدودات وإني ـ يشهد الله ـ ماكنت أتوقع ذلك ، وهذا يدل على أن هناك الكثير من

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله نحمده ونستعينه ونتوب إليه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. . . . وبعد. .

فقد مضى على طباعة هذا الكتاب أكثر من عشر سنوات ، لم يتسنَ لي خلالها العودة إلى طباعته مرة ثانية ، إلى أن قامت دار المكتبي ـ مشكورة ـ بإعادة طباعته ، وتولت نشره وتوزيعه . لقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب حين صدوره عام ١٩٨٤ خلال شهور معدودات وإني ـ يشهد الله ـ ماكنت أتوقع ذلك ، وهذا يدل على أن هناك الكثير من

الشباب المؤمِن ممن تتوق نفسه للتعرف على حَسَنات هذه المرأة الجليلة القدر .

وجاءت الطبعة الثانية لهذا الكتاب في وقت تكاثرت فيه المشاغل عليّ ، فلم يُتَح لي أن أعود إلى فصوله بشيء من المراجعة والتهذيب . . . لذا فليس في هذه الطبعة من جديد ، اللهم إلا من تصحيح لبعض الهفوات والأخطاء التي حدثت في الطبعة الأولى ، مع بعض التعديلات والزيادات التي لاتكاد تذكر .

والحقيقة ، إن للسيدة (رابعة) في حياتي قصةٌ ، فقد أحببتُها منذ أن كنت طالباً في الثانوية العامة ، كتبت عنها مقالاً صغيراً وقتها من أجل أن أُلقيه على بعض الشباب في مسجد الحي ، ومنذ ذلك اليوم وجدتُ نفسي تواقةً للتعرف على حياة هذه المرأة الجليلة المباركة أكثر ، فأخذت أبحث عن المراجع والمصادر التي تتحدث عنها ، إلى أن وفقني الله عز وجل ـ بِمَنه وفضله ـ إلى أن أقدم هذا الكتاب ، لأبيّن من خلاله الصورة الصادقة جليّةً عن السيدة رابعة ، موضحاً للقّراء الكرام أن كل التُهَم التي أُلصقت بها غير صحيحة ، فمن تصويرها بصورةِ (ماجنة) ترضي خيالهم وأهوائهم إلى قائل أنها

اندفعت في طريق الاهواء والشهوات ، وإلى ثالث أنها امتَهَنت حرفة الغناء والرقص[1] إلى ماهنالك من اتهامات لا صحة لها ولا دليل ، ولا تَمُتُّ إلى الحقيقة بِصِلة .

وحاشا لهَا أن تكون كذلك ، وهي التي أفْنَت حياتها للّه تعالى ، وكانت صادقة ومخلِصة في ذلك ، فلم يشغلها في الوجود سوى الله ، فتراها دائماً ذاهلة محبّة ، تغوص في بحرٍ من الشوق والوجد .

فأحمد الله عز وجل أن وفقّني لإظهار الصورة الحقّة عنها ، وإنني بعملي هذا أرجو أن أُوفِّي ماعقدت عليه العزم من تجلية حقيقة هذه المرأة المباركة بأوضح صورة . كما أنني نَوهت في مقدِّمتي للطبعة الأولى ، أنني لم أجعل كتابي هذا عبارة عن قصة تتحدث عن رابعة فحسب ، وإنما كانت طريقتي أن أعطي لكل عنوان حقه في هذا الكتاب ، فحينما

(١) يقول الشيخ علي الطنطاوي : ظهرت من سنوات قصة غنائية مصورة ، زعموا أنها تمثل حياة (رابعة العَدَوية) ، مع أنها لاتمثل إلا مافي نفسِ مؤلفها من خيالات وتهاويل ، ومافيها عن حقائق التاريخ إلاّ القليل ، انظر كتاب (تعريف عام بدين الإسلام) ص ٤٦ .

أتحدث عن ذكْرِ رابعة أو حبها أو فنائها أو غير ذلك ؛ فإنني أعطي لكل عنوان حقه من حيث التعريف والاستشهاد والدليل ، من القرآن الكريم والسنّة النبوية المشرفة وعمل الصحابة ومن تبعهم وسار على منهجهم من السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين .

فحمداً لك يارب أن وفقتني لذلك! وأرجوه سبحانه وتعالى أن يُجَنّبني الزَّلَلَ ، وأن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

ولا يسَعُني في نهاية المطاف إلا أن أتقدم بخالص شكري لدار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع بدمشق ، التي ساهمت في إخراج هذا الكتاب في أجمل حُلّة .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربِ العالمين .

عبد الماجد الشاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّهم إنا نسألك نفساً مطمئنةً ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتَقْنع بعطائك .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا .

ربنا إنك غفورٌ رحيم .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبْنا وإليك المصير .

الإهداء

إِلى مَن كان له الفضل الأكبر في تغذية روحي واستقامة سلوكي ، إِلى شيخي وأُستاذي عبد القادر عيسى حفظه الله . . وإِلى كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ يريدان التعرف على حياة هذه المرأَة الجليلة القَدْر . .

وإِلى الذين يستمعون القول فيتبعون أَحْسَنَه . .

أُقدِّم هذه الرسالة .

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة الكتاب

إن الحمد للّه ، نحمده ونشكره ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أَنفسِنا وسيئات أَعمالنا ، من يهدِ الله فهو المهتدِ ، ومن يُضلِلِ فلن تجد له ولياً مرشداً ، وأفضل الصلاة وأتم التسليمِ على سيدِنا محمدٍ النبيِّ الأُمّيِّ المبعوثِ رحمةً للعالمين .

وبعد ، لم يكن من الهيّن عليَّ ، ولا من اليسير لديّ أن أَجمع حياة السيدة (رابعة العدوية) رضي الله عنها ، في مقامٍ متواضعٍ كهذا .

فحياتها طويلةٌ خِصبةٌ حافلةٌ ، وسيرتُها تُعدُّ بحقٍ مَأْثرةَ تاريخيةً مؤثّرة وفاعلةً ؛ وأنا لم أَفرغ بعدُ من التنقلِ والتردّدِ بينَ أُمهاتِ الكتبِ الإسلاميةِ ، ودفينِ السيرِ والتراجمِ ، ومراجعِ

تراثنا العربي ووثائقِه المحفوظة ، كما لم أنْتهِ بعدُ منْ دراسةِ جوانبِ شخيصتها الرحْبةِ الفذّة على وجهِ التخصصِ كلياً ، ومن ثمَّ ، فقد كنتُ أُفضّلُ أن أُرجىءَ تقديم هذا الكتاب لولا وجودُ بعض الإخوةِ ، الذينَ حَثُّوني على بذلِ أَقصى الجهودِ ، وكان لهمُ الفضلُ الكبيرُ في مساعدتي . فجزاهمُ اللهُ عني كل خيرٍ .

لذا فقدْ وجدتُ أنْ لا تَثْريبَ عليَّ اليومَ . وبعدَ طولِ صحبةٍ لـ (رابعة) في تراثها ، أنْ أقدّمها إلى جمهرةِ قرّاءِ أَعلامِ (التصوفِ الإسلامي) بعدَ أَن حُجبتْ عنهم طويلاً ، أو صُوِّرتْ لهمْ على غيرِ حقيقتها التي تُقَدِّمها لنا آثارُها رضي اللهُ عنها .

وأُحبُ أَن أُنوِّهَ للقارىءِ العزيزِ أنني لمَ أجعلْ كتابي هذا عبارة عن قصة تاريخية تتحدثُ عن السيدةِ (رابعة) فحسبْ ، ولكنني حاولتُ أَن أُضمِّن كتابي هذا بعضَ المفهومات التي تتعلقُ بالتصوفِ الإسلامي ، التي طالما حجبتْ عن مداركِ كثيرٍ من شبابنا المثقفِ في عصرنا الحالي ، وذلكَ ليكونَ الكتابُ ذا حيويةٍ ساذجةٍ تُعِينُ القارىء على فهمِ حياةِ السيدةِ (رابعة) فهماً ذوقياً وفكرياً . وليكونَ النفعُ أعم . .

هذا . . . ولقد حاولتُ ـ قُصارى جهدي ـ أَن أُقدمَ في هذا الكتابِ الصورةَ الصادقةَ والكلمةَ الحقةَ عن (رابعة) ، مستخلصاً الغثَّ من السمينِ من آثارِ وأَقوالِ مؤرِّخي عصرِها ، مستبعِداً ما علقَ في ذهنِ عامةِ الناسِ من دسائسَ وتُهَم باطلة ، أُلصقتْ بها ، ـ ظلماً وعُدْواناً ـ وهي بريئةٌ منها براءةَ الذئبِ من دمِ ابنِ يعقوبَ عليهما السلام!!

فحمداً للّهِ أن وفَّقَني للكتابةِ عن هذهِ المرأَةِ الجليلةِ القَدْر ، وأَرجو منه سبحانهُ أنْ يجعلَ عملي هذا خالصاً لوجههِ الكريم ، وأن يهديَني إِلى الطريقِ القويم . وفي الختام ؛ أَتوجّهُ إِليكَ أَخي المؤمِن ـ أيّاً كنتَ ـ أَن لاتنسَني من الدعاءِ عندَ قراءَتِكَ لهذا الكتاب ، فدعاءُ الأخِ لأخيهِ في ظَهْرِ الغَيْبِ مستجاب ، وماتوفيقي إِلا بالله ، عليهِ توكلتُ وإِليهِ أُنيبُ ، وأُفوضُ أَمري إِلى اللهِ ، إِن اللهَ بصيرٌ بالعباد .

عبد الماجد الشاوي

نشأة رابعة

نشأة رابعة

كانت الدولةُ العربية الإسلامية في مطلع القرن الثاني للهجرة قلبَ الحضارة العالمية ، النابضِ بالفكْر والأدب ، والعلم والفلسفة .

وكانت البَصْرة نجماً يتلألأ في سماء العراق ، فقد كانت أَعظمَ بُلدانها شهرة بعد بغداد ـ مركزِ العاصمة ـ وأَسطعَها تألُّقاً بالعلم والمعرفة ، كيف لا ؟ وهي قِبلة العلماء ، ومَحَجَّةُ الأُدباء ، ومَجْمَعُ المفكرين والبُلغاء ، حتى أنه يُروَى أَنه كان بها أَكثر من أَربعةِ آلاف مُحدِّث ، يتكلمون في شتى صُنوف المعرفة .

ثم تلتْ ذلك مرحلةٌ تاريخية مهمة ، أَحدثت مُنْعَطفاً واضحاً غيَّرَ مجرى الحياة تغييراً جذرياً ، وقَلَبَ الأحداث رأساً على عَقِب ، بحيث أَصبح البَوْنُ شاساً بين ماكانت عليه

الدولة الإسلامية ، وماآلت إليه ،إذ تغشّى فيها ترفُ الأكاسرة ، وبَذْخ الأباطرة ، وتدفَّقَت إليها أَموال الفُرْسِ ، فانسابت إليها موجة عارمة من البذخ والترف الدُّنيوي ، والتنعمُ بملاذِّ الحياة وشهواتها!

وعلى ضفاف تلك الحياة العجيبة ، المتراوحة بين الإيمان والزهد ، وبين التّرف واللهو ، كان هناك على جانب آخر منها جماهيرٌ من الفقراء الذين تخلَّتْ عنهم الحياة الناعمة ، وتركهم الرَّكْب يرزحون تحت وطأَة الحرمان ، وقسوة الفاقة ، وعَوَز الحياة ومتطلَّباتِها ، حتى مِن أبسط قواعدها وأَتفهِ ضَروراتها ، وهم خليط من العَرَب والعجَم والزنوج والعبيد ، جمَعَهم الإسلام ومزج بينهم ، وصهرهم في بوتقته التي أَنْسَتْهم حَمِيّة النَّسَب واتجهت بهم إلى حمِيَّة التمسك بالأمانة والرسالة المحمدية .

وهناك ، بعيداً عن التصور ، ومِن بين مئات الأكواخ حيث أَحياءُ الفقراء ، كان يرقد كوخٌ صغير متواضع ، عرفه البَصْرِيُّون باسم كوخ (العابد) يضم بين جَنَباته أَباً صابراً وأُماً حنوناً ، وثلاث بنات صغيرات ، جمعتهم الأُبوة الواحدة والمَهْد المشترك .

كان صاحب الكوخ رجلاً مجرَّداً من متاع الدنيا ، لكن روحه كانت تفيض بالإيمان والرضا العميق ، وبالقناعة التامة والقبول الحسن بكل مايصيبه ويناله ، تراه صائماً يومَه ، قائماً ليلَه ، لايفترُ لسانه عن ذكر الله وتسبيحه ، ولا يتوانى عن لحظة يخلو فيها إلى ربه ، يفضي فيها إليه بأشجانه ، ويبثُّه لواعج صدره .

كل ذلك كان مغلّفاً بغلاف الإيمان العميق والشعور الصادق الرقيق ، بأنه هو وحدَه منقِذُه ومُنجِدُه من حالة البُؤس والشقاء .

نعم ، إنه بُؤس مابعده بُؤس ، وشقاء مابعده شقاء ، حيث لم تَشهد البصرة بين الفقراء عائلةً ترزح تحت فَقْر مُدْقع كهذا الفقر !! يضربون في الأرض وراء لقمة يتبلَّغون بها ، أو خِرْقة يتَّقون بها لَفْحة الهاجرة! . وكان من عادة هذا الكوخ أن يستقبل في مطْلع كل عام طفلة جميلة ، تفيض لها عيون الأُم دموعَ أَلَمٍ ومرارة ، لأنها كانت لاترى في الطارق الوافد إلاّ عِبئاً إضافياً يقع على كاهل الأب . . لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إليه ، فهو الصابر المحتسِب القانع الراضي .

وذات يوم ، وبعد أن تلاشى آخر خيط من خيوط الشمس

الذهبية مُعلناً موت نهار ، لتستيقظ بموته الآلام والأحزان .

وبعد أن أَرخى الليل سدوله ، ودبّ الشفق الأحمر في حاشية الأُفق ، وبعد أن أَطلت عيون الكواكب من فروع السُّحُب ، ومَسَحت أَيدي النسمات المبتلّات بندى الليلِ عن أَوراقِ الأشجارِ غبارَ النهار .

وبعد أن أَوى الناسُ إلى منازلهم ، والطيورُ إلى أَوكارها ، والوحوشُ إلى مخابئِها ، وبعد أن أَخذت الطبيعة مكانها من مرقدها ، لم يبق من الأصوات إلاّ أَنينُ زوجِ ذلك العابد من توجعات المخاض ، الذي فاجأها في تلك الليلة الحالكة الظلام . وماج الكوخُ وهاج من جديد بالحركة ، ودبّ فيه النشاط ، واغرورقت مقلتا الأُم بالدموع ، وارتسمت على وجه الأب ابتساماتٌ تَنُم عن حَيرة وقلق قاتلين .

تُرى ماذا عساه أن يفعل؟ إنه لا يجد امرأةً أخرى تعِينها وتقوم بما يستلزم من أُمور التوليد وشؤون الولادة .

وانكبّ الأب بكل جوارحه ، مواسياً ومعلّلاً إياها بالفَرَح مما تلاقيه من أَلمٍ ، وقد كان يتأَلم أَكثر منها ، فجيبه لايحمل حتى درهماً واحداً .

ويشتد المخاض على الزوجة ، فتشتد عليه - بالمقابل - وطأةٌ مهلكةٌ من الألَم والحسرة .

إنه يريد أَن يلتمس العون والإسعاف من جيرانه ، ولكنّ إباَءَه وحياءَه يصدّانه ويقفان له بالمرصاد ، حائلَين بينه ومايبغي !!

وما ذلك كله إلاّ لأنه كان قد عاهَدَ اللهَ أن لايطلب من عبد من عباده شيئاً ، وتضرعتْ إليه الزوجة المسكينة وتوسّلت أَن يفعل شيئاً ينقذُها مما تقاسي من عُسْر المخاض ، وأَن يسارع إلى إسعافها . وأَمام هذه التوسُّلات وتِلْكُم التضرعات ، حطّم الزوج ذاك الحاجز ؛ فذهب مُنْصاعاً شغفاً وحُباً بزوجته ، ورأفة ورحمة بمولوده .

ذهب في حياء وخجل يطرق باباً من أَبواب جيرانه ، لكن الأبواب لم تُفتح ، أَو أَبىٰ أَصحابها حتى أَن يردوا عليه بشيء من الإعتذار يَجبر كسره ويُطيِّب خاطره!

فما كان يسمع هذا المسكين إلا أَصداء طرقاته ، تُرى ماذا يود أَن يطلب؟ إنه يريد زيتاً للسراج يضيء به أَرجاء الكوخ ، وشيئاً من السمن يدهن به موضِع السُّرِّ للوليد ، بالإضافة إلى قطعة قماش يلفّونه بها!!

ورجع الأب إلى زوجته حزيناً مهموماً ، صُفْر اليدين ، حائر الفِكْر ، فما أن رأَتْه على هذه الحال ، حتى اندفعت في موجة جنونية من البكاء ، مُطْلِقة الآهات من التوجُّعات بما لايطاق احتماله ولا يُستطاع تجرعُه ، فأَي عين يَجمُل بها أَن تستبقي في مَحْجَرها قطرة واحدة من الدمع فلا تريقها أَمام هذا المنظر المحزن المؤثِّر!؟

وأَي قلب يستطيع أَن يستقر بين جَنْبَي صاحبه ساعة واحدة فلا يطير جَزَعاً حين يرى تلك الملحمة الدرامية المؤثِّرة! .

وانطلق الزوج مقبلاً على ربه فامتزج دعاؤه بِصَرَخات الزوجة ، وجاء الفَرَجُ من مُفرّج الكروب ، وانطلق صوت الوليد يُبدِّدُ سكون الليل المظلم ، وكأَنه يشارك صوت أَبيه وهو ينشد :

يا عالِمَ الأسرار علْمَ اليقين ،

ياكاشف الضرُّ عن البائسين ،

ياقابل الأعذار عُذْنا إلى ظلك ،

فاقْبَل توبة التائبين .

وأَسرع الزوج يستقبل الوليد الجديد لعله يكون في هذه

المرة ذَكَراً ، كيما يصبح في المستقبل رجلاً يعينُه على تحمُّل أعباء الحياة وقسوة جَور الأيام .

ولكم خاب ظنه وتبدد أَملُه ، عندما رأَى أَمامه طفلة (رابعة) ، فما كان منه ، وهو صاحب القلب الكبير والإيمان العميق ، إِلاّ أَن حَمِد الله وشكره ، ثم توجه إِلى زوجه قائلاً :

إِن طفلتنا هذه ، هي رابعةُ بناتنا فلْنُسَمِّها (رابعة)[١] .

ثم انصرف مهموماً مفكِّراً إِلى صلاته وتسبيحه ليُريح بالصلاة همَّه ، فلقد كان يتمنى في قرارة نفسه أَن يكون مولودُه ذَكَراً ، ولكنْ هكذا أَرادت مشيئة الله وقدرتُه ، ولارادَّ لما شاء الله وقَدَّر .

وبينما هو مستغرِق في صلاته وتسبيحه ، أَخذتْه سِنةٌ من النوم ، فرأَى النبي ﷺ في منامه يقول له : « لاتحزن فهذه الوليدة سيدةٌ جليلة ، وإِن سبعين من أُمتي لَيَرْجُون شفاعتها يوم القيامة » .

ثم أَمره ﷺ بالتوجه إِلى (عيسى زادان) أَمير البصرة ، وأَن يكتب له رقعة يخبرُه فيها أَن النبي ﷺ زاره في المنام ،

---

(١) ولدت سنة ٩٥ هـ .

وأَمرَه أَن يذهب إِليه ويقولَ له : « إِنك تصلي مائة ركعة كل ليلة « وفي ليلة الجمعة أَربعمائة ، لكنك في الجمعة الأَخيرة نسيت ، أَلا فَلْتَدْفع أَربعمائة دينار لصاحب هذه الرقعة كفارةً عن هذا النسيان » .

وفي الصباح كتب والد (رابعة) الرقعة ، وأَرسلها عن طريق الحاجب إِلى الأَمير ، فلما قرأَها الأَمير أَمر بإِعطائه أَربعمائة دينار فوراً وإِحضاره إِليه ، ثم راجع نفسه في الحال وارْتأَىٰ أَن يذهب إِليه بنفسه ، إِجلالاً وإِكراماً لمن أَرسله ، وتولى بنفسه العنايةَ بابنة العابد الجليلة القدر[1] وهكذا خرجت رابعةُ إِلى النور والشمس غاربة والنهار مدْبِر ، وكانت ليلتُها الأُولى على الأَرض من ليالي المُحاق « والقمر غائرٌ في صدر قُبة السماء ، وكأَنما آثر أَلاّ يخرج في تلك الليلة ، استحياءً وخجلاً من سنا طلعة (رابعة) ، نعم ؛ إِنه خجل أَن يسطَعَ في أُمسيةِ تلك الليلة المباركة ، التي واكبتْ مولدَها ، ولولا مولدها في بيتٍ وَرِعٍ وتقيٍّ ، لطُوِيَتْ تلك الليلة في غيابة الزمن ، ولضاعت منا معالِمُ الطفولة لتلك الوليدة ، التي

---

(١) عن تذكرة الأولياء بتصرف .

قُدّر لها أن تبهر الناس بعد حين ، وأَن تَلْفِت إِليها تاريخَنا الإسلامي ، فيسجل أَنفاسها ويحصي خطواتها .

ولم تكن تلك المرأة الموعودة بالمجد في حساب التاريخ ، ولا كان لأَحد من أَهل بلدَتها أَن يتكهَّن بأَن هذه الطفلة سوف تغدو أَشهر من يُنْسَبُ إِلى (بني عَدْوَة)[1] .

وهكذا ترعْرعَت رابعة في بيت أَبيها الزاهد الفقير ، وكانت مع حداثة سِنِّها ذكيّةً ذكاءً لا يُعْهَدُ في مثل سنِّها ، فقد حفظت القرآن وحافظت على الصلاة وهي في عُمْر الورود .

وتكونَ وِجْدانُها الديني الدقيق وهي طفلة في نضارة الزهْر .

وفي خَبَرٍ : إن والدها قَدّم إِلى الأُسرة طعاماً ، فتحلَّق الجميع وأَقبلوا عليه ، إِلاّ هي ، فقد نظرتْ إِلى أَبيها وقالت : « يا أَبتِ لستُ أَجعلُك في حل من حرام تطعمُنيه »!!

ونظر الأَب إِليها نظرة إِعجاب ودهشة وقال : « أَرأَيتِ يارابعةُ إِن لم نجد إِلاّ حراماً »؟!

---

(١) وهي قبيلة رابعة إحدى بطون آل عَتِيْك .

فقالت : « نصبر ياأَبتِ في الدنيا على الجوع خيراً من أَن نصبر في الآخرة على حَرّ النار » .

وحارَ عقلُ الأب لهذا الجواب الذي لم يسمعه إلاّ في مجالس الزَّاهدين والعابدين . ولاحظ الأب انطواء ابنته على نفسها . وانشغالَها بربها ، وتركها ذات ليلة وهي تقرأُ القرآن ، وذهب إلى فراشه ، وراح يغطُّ في نوم عميق ، ولما استيقظ في الصباح ، وجدها لاتزال كما تركها في المساء ، واقفةً بين يدي الله تدعوه وتبتهل إليه ، والدموع تذرف بحُرقة من عينيها .

وبقيت على ماهي عليه من العبادة والتضرُّع إلى الله إلى أن جاءتها المِحْنة الكبرى ، ودقَّ جرسُ الإنذار معلِناً موت أَبيها .

نعم... لقد مات أَبوها وهي لم تزل صبية في فجر صِباها . مات أَبوها وهي تَتدرج من الطفولة إلى الشباب ، ولم تلبث أَن لحقت به أُمها ، فذاقت بذلك (رابعة) مرارة اليتم الكامل أُماً وأَباً ؛ وقساوة الفقر والحاجة ، فلم يكن لها أَخ ، ولم يترك لها أَبوها مالاً تستعين به مع أَخواتها على شراء لقمة العيش ، وبذلك أَطبق الشقاء على (رابعة) ، وحُرمت

من دفء الحنان ، ومن رِقة العطف ، ومن الحب الأَبَوي ، وهي تتفتح على الحياة وتمشي إِلى شبابها ، فلَكِ الله يارابعة!! يامن ذِكرُكِ عِطْر الحياة .

نعم ، لقد أَطبق الشقاءُ عليها وهي تمشي إِلى ربيع العمُر ، فكيف يمكنها أَن تسير وحدها؟ من يحميها؟ من يرعاها؟! لا يوجد لها أَبٌ ولا أُمٌ حتى ولا أَخ! .

ليس لها في حياتها سوى أَخواتِها الثلاث! وهاهي تُحيي الليلة في البكاء وذَرْفِ مُرِّ العَبَرات .

فنهارُها شقاءٌ ، وليلُها نَحيب وبكاء . وتعود ذات يوم إِلى كوخها ، لتجد فيه صديقتها (عَبْدَة) ، فتبكي وتُغْرِق نفسها بالدموع . . وتقترب (عبدة) منها قائلة :

ـ مالك يارابعة؟

ـ لست أَدري . . . إِنني حزينة؟

وأَخذت (رابعة) تبكي في زَفَرات ، وتجيب في نحيب : إِنه لحزن غامض لاأَدري سببه ولا باعِثَه!! إِنها هواتف في خاطري تدفعني إِلى البكاء ، وإِنها لمناجاة في سمعي لا أَملك معها إِلاَّ سفح هذه الدموع .

وزاد في مأساة تلك الفتاة ، أن السماء أقلعتْ عن المطر ، وأن الضُّرُوع جفَّتْ ، وأن الزورع ذَبُلَتْ ، وأن القحط قد حلَّ بالبَصرة ، فأدى ذلك إلى المَجاعة ، فغادرتْ رابعةُ وأخواتُها الكوخ ، وأَخذْنَ يضربْن في الأرض يلتمسْن لُقيماتٍ يُقمْنَ بهنّ أَصلابهن ، ولكنهن تَضوّرْنَ جوعاً ، وتفرقْنَ في الأرض ، وبقيت (رابعةُ) وحيدة فقيرة ، وكأن لسان حالها يقول :

« مالي وللناس؟ وُلدْتُ وحيدةً ، وأَموت وحيدةً ، وأَدخل قبري وحيدة ، وأُبعث وحيدة ، وأُحاسب وحيدة ، وأَدخل الجنة وحيدة » ، أَجل . . لقد بقيت وحيدةً لا تجد قلباً يحن عليها ، ولا عاطفة تُدفّىء حياتها .

وصاحبَ القحطَ والجوعَ كثرةُ اللصوص وباعةُ الرقيق .

ووقعت المؤمنةُ الصغيرة ، اليتيمة ، الفقيرة ، في شَرَكِ ذِئبٍ من هؤلاء الذئاب ، فباعَها إلى تاجر بثمن بَخْسٍ دراهمَ معدودة ، . لقد باعها بسِتة دراهم فقط!! واصطحب التاجرُ الطفلة الأسيرةَ إلى بيته .

وكان فَظّاً غليظَ القلب ، فقسا عليها وحملها فوق طاقتها ، فراحت تتقلبُ بين ألوان العذاب ، لا تجد السعادةُ

سبيلاً إلى قلبها ، ولكنْ على الرَّغم من كل هذا العذاب ، وكلِّ هذا الشقاء ، لم ينطفىء القبَس المتَّقد في قلبها الغَضِّ ، فلقد استطاعت أن تتخذ من هذا العذاب وتلك الآلام ، مايصقُل إيمانها ، ومايزيدُ قلبها صبراً ، وروحَها طُهراً ، فهي تستمد ذلك الصبر من أنوار قوله تعالى ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

فأصبحت لا تبالي بالإرهاق الذي يعتريها في حياتها ، فإذا جاء الليل خَلَتْ إلى ربها تناجيه وتتضرع إليه وتبتهل ، وكأن لسان حالها يقول :

إلـى الخلـوات تـأنـس فيـك نفسـي
كمـا أَنِـسَ الـوحيـدُ إلـى الجميـع

لقد كانت تناجي ربها والدموعُ تنحدر من عينيها ، إنها لم تكن تسألُه أن يَفُكَّ أسْرها ، وأن يُخَلِّصها من ذلك الشقاء ، ولكنها كانت تريد أن تعرف شيئاً واحداً ؛ . . . هل هو راضٍ عنها أم لا؟! .

فلقد كانت تقول :

« إلهي أنا يتيمةٌ معذَّبةٌ ، أرسُفُ في قيود الرِّق ، وسوف

أتحمَّل كل أَلمٍ ، وسأَصبر عليه ، ولكنَّ عذاباً أشدَّ من هذا العذاب يُؤلِم روحي ، ويفكِّكُ أوصال الصبر في نفسي ، منشؤه رَيْبٌ يدور في خَلَدي : هل أنت راضٍ عني؟ تلك هي غايتي! » .

ومن خلال هذه المناجاة والعبادة أَخذ إِيمانُ (رابعة) يسمو نحو الرُّقي والإشراق الروحي ، لقد كانت حياتُها كلُّها مناجاة .

أَليس الله مطلبُها؟ فكيف يفعل الطالب مع مطلوبه؟! إِنها لَتَنْشُدُ الرضى ، ولا تبالي بأَحداث الحياة وما تلاقيه من الشقاء والعذاب . فَلَذَّة مناجاتها لله وحلاوةُ الإيمان به أنسياها مرارةَ العذاب والتعب ، فهي لا تفكِّر إلاَّ برضا الله تعالى .

ومن هذه الحادثة التي سَنَسُوقها ؛ يتبيَّنُ لنا مدى شِدة التفكير الذي يعتريها في الإطمئنان إِلى أن الله راض عنها أم لا؟! .

أرسلها سيدُها يوماً إِلى السوق لقضاء حاجة ، فخرجت تسلُك أزقَّة البَصرة ، فَلَمَحَها رجلُ سَوء ، فأعجبه شبابُها وحياؤُها ، فلاحَقَها بنظراته الخبيثة الخائنة ، فاضطربتْ وارتجفتْ وتعثَّرتْ . ثم سقطت على الأرض . فانكسر

ذراعُها وأُغمي عليها! فلما استردَّتْ صوابها ، رفعتْ رأسها تناجي ربها :

« رباه لقد كُسرت ذراعِي ، وأنا أُعاني الألَم واليُتْم ، وسوف أتحمَّل كل شيء وسأصبر عليه . فهل أنت راضٍ عني ياسيدي؟ إلهي هذا ماأتوق إلى معرفته! »[1] .

* * *

(١) تذكرة الأولياء ـ للعطار .

مناجاة رابعة

مناجاة رابعة

وأخذ الحُب العظيم ، والمناجاة الإلهيةُ ، يملآن حياة (رابعة) ، وما أحلى وأروعَ الإستغاثة بالله سبحانه وتعالى! حيث يقف المرءُ في جوف الليل بين يدي ربه سبحانه ، منكسِراً متذلِّلاً يسكِبُ العَبَرات ، يقول لربه :

« يارب! تركتُ الناس كلَّهم ورائي ، وجئتُ إليك وحيداً ، فلا تطرُدْني من رحمتك ياأرحم الراحمين » .

وهاهي (رابعةُ) غارقةٌ في مناجاتها الحارة تناجي ربها وتتضرع إليه ، وإذا بها تسمع صوتاً يقول لها :

« لا تحزني! ففي يوم الحساب يتطلَّع المقرَّبون في السماء إليكِ ، ويحسدونكِ على ماتكونين فيه ! » .

لقد كان لهذا الصوت أثرٌ كبير في حياة (رابعة) ، فمن

خلاله عرفتْ أنها تسير في الطريق المستقيم الذي يرضي الله تبارك وتعالى ، لذلك أيقنت أن الله يرعاها ويتقبَّل منها عملَها ، ومن ثَم عادت إلى وظيفتها .

عادت لتعمل عملها الشاقَّ في بيت سيدها ، وهي مبتسمةٌ راضيةٌ ، تتمنى أن تَمضيَ ساعاتُ النهار سريعاً من أجل أن تتفرَّغ لربها في الليل ، لتجلس معه ولتخاطبه ولتناجيه :

ولـــيُّ الله ليـــسَ لـــهُ أنيـــسٌ
ســوى الـرَّحمـنُ فهـو لـه جليـس
فيـــذكـــرُه ويـــذكـــرُ، فيبكـــي
وحيـدَ الـدهـر جـوهـرةٌ نفيـس

وذات ليلة استيقظ سيدُها ، فسمع صوت مناجاةٍ حارةٍ تُذيب الصخر على قساوتِه ، فأخذ يتتبَّعُ الصوتَ إلى أن وصل إلى غرفة (رابعة) ، ثم أخذ ينظر من ثقبٍ إليها ، وإذا به يراها ساجدةً تصلي وتناجي ربها وتقول :

« إلهي أَنت تعلمُ أن قلبي يتمنى طاعتَكَ ، وأن نورَ عينيَّ في خدمتك ، ولو كان الأمر إليَّ لما انقطعتُ لحظة عن مناجاتك ، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك! » .

وأثناء دعائها المملوءِ بالشوق والحُب ، شاهدَ قنديلاً يشِعُّ فوق رأسها من غير أن يكون معلَّقاً بسلسلة ؛ وكان هذا القنديل يملأ البيت ضياءً ونوراً ، فذُهِل أمام هذا المنظر العجيب من تلك الخادمة البسيطة ، فعاد إِلى مضجَعِه مفكِّراً بأمر هذه الجارية ، وبهذا النور المبهِرِ ، وظل على حالته تلك مذهولاً مفكراً حتى طَلَع عليه الفجر .

عندها دعا (رابعةَ) ، وقال لها بأدب واحترام : « أيْ رابعةُ ، وهبتُكِ الحريةَ ، فإن أحببْتِ بقيتِ هنا ونحن جميعاً في خدمتك ، وإِن شئتِ رحَلْتِ أنَّى تريدين »[1] .

فما كانت تسمع هذه الكلمات حتى سارعت في النهوض ، وودَّعته ، وخرجتْ تتنفَّس الصعَداء ، فقد تخلَّصت من قيود الرِّق وذِلَّته ، لتنقطع لعبادة الواحد الوهَّاب .

ومن هذه النقطة ابتدأتْ مرحلةُ الغموض في حياة (رابعة) ، تلك المرحلةُ التي أتاحت لأعداء التصوُّف ؛ بل لأعداء الإسلام ، من المغرضين والمستشرقين ، الذين لم

(١) عند تذكرة الأولياء بتصرف .

يكن لهم هَمٌّ في هذه الحياة سوى الطعْن بالإسلام وتشريعه وأَعلامه . فوجدوا في حياة السيدة (رابعة) مايستطيعون به أن يدسُّوا ويغيِّروا ويطلقوا سهامهم المسمومة . ليضعوا المسلمين أمام صورة مزيّفة عن (رابعة) . . . فقد صوَّروها بصورةٍ ماجنةٍ تُرضي خيالهم وأهواءهم . .

فمن قائلٍ إِنها اندفعت في طريق الأهواء والشهوات ، وآخر أنها امتهَنَت حِرْفة الغِناء والرقص ، إِلى ماهنالك من اتهامات لا صِحة لها ولا دليل . ولا تمت إِلى الحقيقة بِصِلةٍ . وليس هذا بِعَجيب من المستشرقين وأَعوانِهم ، فالإنسان الذي يكتب تاريخاً عن أُمةٍ ، ليست أمّته يعيش بِرُوحٍ غيرِ رُوحها ، وبعقيدةٍ غيرِ عقيدتها ، فليس بعجيب أن يطعن فيها. وفي رجالتها وعظمائها . لأنه كَمَثَل من يَصِفُ الجمالَ وهو لم يره ، فيقع ـ في وصف الجمال ـ بالوصف السيء . والمستشرقون لا يعتمدون إِلاَّ على أسلوب الحَدْس والتخمين والظن . وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم : ٢٨] .

ويقـول أيضـاً : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس : ٦٦] .

والحقُّ الذي لاينكره عاقل أنه لايمكن لِفَتاة نشأتْ منذ طفولتها على محبة الله ورسوله ، تصلي في اليوم ألف ركعة ، والتي ليس لها هدف في الحياة سوى أن تحظى برضاء الله سبحانه عليها ، فكثيراً ماكانت تردد في مناجاتها :

« إلهي! إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أُبالي » .

امتنعتْ عن أكل طعام فيه شُبُهة ـ وكانت ماتزال طفلةً في مقتبل العمر .

إنه لا يمكن لمثْلِ هذه الفتاة التي بدأت هذه البدايات ، أن تنتهي إلى أمثال تلك النهايات غير الخلقية .

فرابعةُ ، بعد أن أكرمها الله فحرَّرَها من الرِق والأسْر ، لا يمكنها أن تُقابِل المعروفَ بالعِصْيان والمنكَرات ، وهي المؤمنة التقيّة منذ ريّعان طفولتها .

والقول الحق الذي يُعيد لحياة السيدة (رابعة) صفاءَها وطُهْرها ـ بعد تحرُّرِها من الرق ـ هي أنها انطلقتْ إلى العبادة ، وصار لها اتصالٌ بكبار رجال التصوّف ، الذين كانوا

سادةَ البَصرة في ذلك العصر أمثال : (إبراهيم بن أدهم)[١] و (سفيان الثوري)[٢] و (مالك بن دينار) .

وأخذتْ رابعة تحضُر مجالس العلم بالمساجد ، وتنهَل من مَعين التصوُّف وحلقاتِ الذكْر ـ كما ذكرتْ ذلك كتبُ الطبَقات ـ ولم تكنِ قد جاوزتْ آنذاك الثانيةَ عشرَةَ من عمُرِها وأخذت تَرضع من لِبَان المعرفة روحِها يوماً بعد يوم .

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور رضي الله عنه ، كان من أولاد الملوك ، وكان إذا لم يجد الطعامَ الحلالَ أكلَ الطين ، فمكَث شهراً يأكل الطين وقال : « لولا أخاف أن أُعِيْنَ على نفسي ، ما كان لي من طعامٍ إلا الطين حتى أجد الحلال أو أموت » وكانِ يُدعى : (سلطانَ الزاهدين) .

(٢) هو : أبو عبد الله سفيانُ بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، وُلد سنةَ سبع وتسعين ، وكانوا يسمّونه (أمير المؤمنين في الحديث) ، فقد كان عالِمَ هذه الأمة وعابِدَها ، وكان يملي الحديث ويقول : « واللهِ لو رآني عمر بن الخطاب ، لضَرَبني بالدُّرّة وأقامني » ولَقال : مثلك لايصلح للحديث »! كان أبوه من ثِقات المحدِّثين » ولقد ذَكَره المؤرخون في أئمة الحديث الذين أَخذ عنهم سفيانُ ، خرَج سفيانُ من الكوفة إلى البَصرة سنةَ خمس وخمسين ومائة ، وتوفي فيها سنة إِحدى وستين ومائة .

ثم بعد ذلك تَركت المساجد ، وسارعت إلى حياة العُزْلة لتَستأنس بمُجالسة المحبوب ، لا يشغلُها عنه شيء ، فكثيراً ماكانت تدعوه قائلة :

« اللَّهم إني أعوذ بك من كل ما يشغلَني عنك ، ومن كل حائل يحول بيني وبينك » .

أجل . . لقد وَهبتْ رابعةُ نفسَها لله ، لا يشغلُها عنه شاغل ، وكيف تنشغل عنه وقد طبع اسمه في قلبها وكيانها وصدق الشاعر إذ يقول :

كيف تبقى للعاشقين ذنوب
وهي من حُرقة الفؤاد تذوب؟
كيف ينسى المُحِبُّ ذِكْر حبيب
واسمه في فؤاده مكتوب؟

فكانت رضي الله عنها بعد انتهائها من صلاة العشاء تقف لتصلي قيام الليل وهي تقول :

« قد نامت العيون ، وغَفَل الغافلون ، وبقيت (رابعةُ) الخاطئةُ بين يديكَ ، فلعلك تنظر إليها نظرة تمنعُها بها من النوم عن خدمتك! ، ثم تهتِف : وعِزَّتك وجلالِكَ ، لا أنام

عن خدمتك في ليل أو نهار إلاَّ غلبةً ، حتى ألقاك » .

إنها مناجاةُ العارفين المحبيّن ، فلقد بَذلَتْ كل مافي وُسْعها لتصل في النهاية إلى ماتصبو إليه من بلوغ قَدَم المحبة .

وحينما نتابع مناجاة (رابعة) ، ونحن نلاحظُ من خلالها النور والطهر ، نرى ما يُدهش العقول ويُبهر الأبصار ، فيروي لنا صاحب الروض الفائق في المواعظ والرقائق :

« إن رابعةَ كانتْ إذا صلَّت العشاء ، قامت على سطح لها فشدَّت عليها دِرعها وخِمارها ، ثم قالت : « إلهي! أنارتِ النجومُ ، ونامت العيونُ ، وغَلَّقت الملوكُ أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك » .

ثم بعد ذلك تُقبِل على صلاتها وتسبيحها ، فإذا كان وقت السَّحَر وأرسل الفجرُ خيوطه ؛ قالت :

« إلهي هذا الليل قد أَدبَر ، وهذا النهار قد أسْفَر ، فَلَيْت شعري! أَقَبلْتَ مني ليلتي فأَهْنَأَ ، أَمْ رددتها فأُعزَّىٰ ، فوعزتك ، هذا دَأَبي ماأَحيَيْتني وأعنْتَني ، وعزتك ؛ لو طردْتني عن بابك ما برِحْتُ عنه ، لما وقع في قلبي من محبتك!! » .

هكذا كانت رابعة تحيي الليلَ تناجي محبوبها . لأن الليل ستار المحِبّين ، وفيه صفاءُ العاشقين . ومناجاةُ العارفين . وعبادةُ الطائعين . يلتقون مع حبيبهم فيغمرهم بأنواره ، ويَتلذَّذُون بمجالسته ، حتى إنهم ليَنْسَون أنفسهم في ذلك المقام ، ورحم الله ابن الفارض حيث قال :

ولقـد خلـوْتُ مـع الحبيـب وبيننـا
سـرٌ أرقُّ مـن النسيـم إذا سَـرى
فـدهشـتُ بيـن جمـالـه وجـلالـه
وغـدا لسـان الحـال عنـي مخبِـرا

فلئن عَبَدَ الناسُ ربَّهم سبحانه وتعالى خوفاً من ناره أو رغبة في جنَّته ؛ فقد عبدَتْه (رابعة) عبادة أسمى وأرفعَ!

عبادةً ليس فيها هوى النفس ، أو رهبة الحسّ ـ وتلك عبادةُ التُّجار ـ لكنها عبدَتْهُ جل جلاله لذاتِهِ ، لأنه إلهٌ يستحق العبادة . فهو سبحانه قيومُ السموات والأرض . الجديرُ بالعبودية والتقديس .

* * *

العذراء البتول

العذراء البتول

لقد عَزَفَتْ رابعةُ عن الزواج وزَهِدَت فيه ، لأنها خشيت أَن يشغَلَها عن محبة الله والانقطاع إِلى مناجاته . تلك المناجاةُ التي لم تجد (رابعةُ) مُتعة ألذَّ منها ، ولا يمكن أن تعادلها لذَّةٌ ، إِنها وَهبتْ نفسَها وحياتها لله ، وكلُّ ما سواه لا قيمة له ، ولا مكان له في قلبها . روى الزُّبَيْديُّ[1] فقال : « خطَبها عبدُ الواحد بن زيد مع علو شأنه ، فهجرتْهُ أياماً حتى شَفعَ له إِليها إِخوانه . فلما دخل عليها ؛ رفضت الزواج منه ، واختارت الانقطاع عن الخَلْق ، واتجهت إِلى الخالق . روى الترمذي عن عطية السعدي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « لا يبلُغُ العبدُ أن يكون من المتقين حتى يَدَعَ ـ أي يترك ـ مالا

(١) اتحاف السادة المتقين : ٩/٧٥٦ .

بأس به ، حذَراً مما به بأس » رواه ابن ماجه والحاكم .

لقد وَجدتْ في عبادتها الأُنس والمحبة والصفاء ، ووَجدتْ في مناجاتها اللذَّة الإلهية ، والأنوار القُدسية ، التي لم تجعل للدنيا سبيلاً إلى قلبها مطلقاً ، هذه اللذةُ التي أشار إليها شيخ الصوفية (إبراهيم بن أَدهم) حينما قال : « نحن على لذّةٍ لو عَلِمَها الملوك لَجالَدُونا عليها بالسيوف! » وروى المناوي قائلاً :

« كَتَبَ محمدُ بن سليمان ـ الهاشمي وكانت غَلَّةُ مُلْكِهِ كل يوم ثمانين ألف درهم ـ إلى كبراءِ أهل البصرة في امرأةٍ صالحةٍ يتزوجُها؟ فأجمعوا أمرهم على (رابعة) ، فكَتب إليها . « أما بعد ؛

فإن الله ملّكني كل يوم ثمانين ألف درهم ، وأنا أُصيِّرُها ومثلُها ومثلُها إليكِ فأجيبيني إلى ما سألتُ » .

فكَتبت إليه : « فإن الزهد في الدنيا راحةُ البدن ، والرغبةُ فيها تورِث الهَمَّ والحَزَن ، فهيِّءْ أمرَك ، وقدِّم لمعادِك ، وكُنْ وَصِيَّ نفسِك ، ولا تجعل الرجال أوصياءك ، فيقتسموا تَرِكَتك ، وصمِ الدهر ، واجعل فطرك الموت ؛ وأما أنا فلو خَوَّلَني الله أمثال ما خَوَّلَك وأضعافه ، ما سَرَّني أن أشتغل به

عن ذكْرِ الله طرفةَ عين ، والسلام » . لذلك يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى : « مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام » .

إنها كما قال الأستاذ طه سرور[1] : « إن زفافَها الخلوةُ ، وعرسَها الذكرُ » ولذّتها المناجاةُ ، وحُبَّها الخالدَ هو حبُّها لله ، لقد نَذَرتْ كل وجودها لخالقها ، إنها تهتف في مَسْمَع الزمن :

راحتـي يـاإخـوتـي فـي وَحـدتـي
وحبيبـي دائمـاً فـي حضـرتـي
حيثمـا كنـتُ أشـاهِـدُ حسنَـهُ
فهـو محـرابـي ، إليـه قبلتـي
يـاطبيـب القلـب يـاكـلَّ المنـا
جُـدْ بـوصـل منـك يشفـي مهجتـي
قـد هجـرتُ الخلـقَ جميعـاً أرتجـي
منـك وصْـلاً ، فهـل أَقضـي منيتـي؟

نعم لقد هجرتْ الخَلْق جميعاً ، واستَأنستْ برب الخْلق ،

---

(١) (رابعة العدوية) طه سرور ص : ٥٨ .

متمثّلة قول ربها : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

وهجرتْ الدنيا بما فيها ، وأَقبلتْ على ربها ذليلةً منكسِرةً تحت جبَروته وعظمته ، وهي تناجيه قائلة :

« إلهي! أنت مقصودي ، ورضاكَ مطلوبي » .

وكانت ـ رضي الله عنها ـ مع كثرة قيامها واستغفارها وتسبيحها تقول كلمتها المشهورة : « استغفارنا يحتاج إلى استغفار » .

لقد كان لكلمتها هذه أَثر عميق ، وعنوانٌ خالدٌ ، يشعر به كل مؤمن يقف بين يدي ربِه مناجِياً مستغفِراً ، وهذا هو رسول الله ﷺ ـ وهو الذي غُفِرَ له ماتقدَّم من ذنبه وما تأَخَّر ـ يقول :

« إنه ليُغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »[1] .

وما أروعها حين كانت تناجيه وهي ساجدة! فتقول :

« سيدي بك تقرَّب المتقربون في الخَلَوات ، ولِعظَمتك

(١) رواه مسلم في صحيحه عن الأغر المُزَني .

سبحَتْ الحيتانُ في البحار الزاخرات ، ولِجلال قُدْسك تصافقتِ الأمواج المتلاطمات . أنت الذي سجدَ لكَ سواد الليل ، وضوء النهار ، والفَلَك الدّوّار ، والبحر الزخّار ، والقمر النوّار ، والنجم الزّهار . وكل شيء عندك بمقدار . لأنك الله العلي القهّار » .

ولْنمشي بخطوات هادئة وأدب وتواضع ، لِنَرى الرجل الذي جاءها يوماً وقال لها : « إني قد أكثرتُ من الذنوب والمعاصي ، فلو تُبْتُ هل يتوب الله عليَّ؟ » فقالت : « لا ؛ بل لو تاب عليك لتُبْتَ! » .

يقول القُرَشي : « دخل على رابعة رباحُ القَيْسي وصالحُ بن عبد الجليل ، وكلابُ ، فتذاكروا الدنيا ، فأَقبلوا يذمُّونها! فقالت رابعة :

« إني لأرى الدنيا بترابيعها في قلوبكم! » .

قالوا : « ومِن أين توهَّمْتُ علينا؟ » قالت : « إنكم نظرتم إلى أَقرب الأشياء إلى قلوبكم ، فتكلَّمْتُم فيه! » .

وللحسَن البصْري(١) رضي الله عنه كلماتٌ رائعة في ذَمِّ

---

(١) هو : الحَسن بن أبي الحسَن البصْري ، وُلد عام : ٢١هـ كان =

الدنيا ، والتحذيرِ من الوقوع في حُبِّها وشهواتها ، والانشغالِ بها عن الآخرة ، يقول رضي الله عنه : « ما عجبتُ من شيء كعجَبي من رجل لا يحسِبُ حُب الدنيا من الكبائر ، وأيْمُ الله إن حُبَّها لَمِنْ أكبر الكبائر ، وهل تشعَّبتِ الكبائر إلَّا من أجلها؟ وهل عُبدت الأصنام ، وعُصي الرَّحمن إلَّا لِحُب الدنيا وإيثارها؟! » .

فحُبُّ الدنيا للدنيا شيءٌ ، والعملُ فيها بأوامر الله شيءٌ

■ رضي الله عنه مِن أجملِ أهل البصرة ، رأى طلحةَ بن عبيد الله ، وعائشةَ ، ولقي علياً بن أبي طالب ، وسمع ابن عمرَ وأَنَساً ، وأبا بَكْرَة ، وجماعةً من الصحابة . روى الفضيلُ ابن عِياض رضي الله عنه فقال : « سألتُ هشامَ بن حسان : كم أدرك الحسَنُ من أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال : مائة وثلاثين » .

وكان ناطقاً بالحكمة . فمن أقواله رضي الله عنه : « احذر ثلاثةً ، لا تُمَكِّنِ الشيطانَ فيها من نفسك : لا تَخْلُوَنَّ بامرأة ولو قلتَ أُعلمُها القرآن ، ولا تَدْخلْ على سلطان ولو قلتَ آمرُه بالمعروف وأنهاه عن المنكَر ، ولا تجلس إلى صاحبِ بدعة ، فإنه يُمْرِض قلبك ويُفسِد عليك دينك » توفِّي في مُستَهل رجب سنة مائة وعشرة هـ .

آخر ، يجب أن تكون الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا ، ويجب أن نجعلها مَطِيّة للآخرة .

روى المناوي[1] فقال : « ذَمَّ بعضُهم الدنيا عندها ـ أي رابعةُ ـ فقالت : قال رسول الله ﷺ :

« مَن أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذِكْرِه » . ذكرُكُم لها دليلٌ على بَطالة قلوبكم ، إذ لو كنتم غرقى في غيرها ؛ ما ذكرتُموها ! » .

أجل إن المستغرِق في حب الله لايمكن أن يشغلَه عنه أحدٌ سواه ، وهكذا كانت العذراء البتول ، غارقةً في المناجاة الإلهية ، وهي في تذلُّلٍ وانكسار دائم أمام جَبَروته سبحانه وتعالى ، وما أحلى الذل بباب الله! وما أروع الاستغاثة والمناجاة لله ، ولله درُّ سيدنا الشافعي حينما سَطَّر أبياته في هذا المقام قائلاً :

بِمَوقفِ ذُلِّي دون عِزَّتِك العظمى
بمخفيِّ سرٍ لا أحيط به عِلْما

---

(١) الكواكب الدريّة : ١/١٠٩ .

بـإطـراقِ رأسـي ، بـاعـترافـي بِـذِلَّتـي
بمَدِّ يدي ، أستمطرُ الجُود والرحمى
بأسمائِك الحسنى الَّتي بعضُ وصفِها
لعـــزتِهـــا يستغـــرق النثـــرَ والنَّظْمـــا
بعهـدٍ قـديـم مِـن! « أَلَسـتُ بـربِّكـمْ »
بِمَـنْ كـان مجهـولاً فعُـرِّف بـالأسمـا
أذِقْنا شرابَ الأُنسِ يا مَن إذا سقى
مُحِبـاً شـرابـاً ؛ لا يُضـام ولا يَظْمـا

وإليكَ قصةَ (الجراد) التي ترسُمُ لنا يقين العبدِ في رزقه من قبل مولاه في أجمل صورة وأبهاها ، فلَقد وَقَعَ الجرادُ على رزْق لهـا ، فـأكلـه ، فـابتسمـتْ ونظـرتْ إلـى السمـاء وهتفتْ :

« إلهي! رِزْقي عندك فما نَقَصَني الجرادُ شيئاً ، ولا سَلَبَني رِزْقاً ، وإنما هو قضاؤُك ، والرزقُ عندك » .

كما قال تعالى : ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] .

وقيل لها : « ما حقيقةُ إيمانكِ؟ » فأجابت : « ما عبدْتُه

خوفاً من نارِه ، ولا طمَعاً في جنَّته ، فأكون كالأجير السُّوْءِ ؛ عبدْتُه حُباً له وشوقاً » .

وروى القُشَيري : « إن (صالحَ المري) كان يُكْثِر من قوله :

« من أدمَنَ قرعَ الباب يوشِكُ أن يُفتحَ له » .

فقالت له رابعةُ : « إلى متى تقول هذا؟ متى أُغلق هذا الباب حتى يُستفتَح؟ » .

فقال صالح : « شيخٌ جَهِل ، وامرأةٌ عَلِمَتْ » .

وتعالوا معنا ونحن نصبوا رويداً رويداً لِنرتشِفَ من سيرتها المزيد ، ولننظُرَ الآن لنرى ما سيدور بينها وبين شيخ المحدِّثين سيدِنا سفيانَ الثوري[1] حين قال لأصحابه يوماً : « هيا بنا إلى المأدُبة التي لا أجد مَن أستريحُ إليه إذا فارقتُها ، فلما دخل عليها » رفع يده وقال : « اللَّهم إني أسألُك السلامة » .

فبَكَتْ رابعةُ! فقال لها : « ما يبكيكِ؟ » فقالت : « أنت

---

(١) تقدَّم الحديثُ عنه في ص ٤٢ من هذا الكتاب .

عرَّضتني للبكاء » ، فقال لها : « وكيف؟ » فقالت : « أما علمْتَ أن السلامة تركُ ما فيها؟! ، فكيف وأنت متلطِّخٌ بها؟! »[1] .

لقد انسابتْ هذه الكلماتُ إلى رُوح سيدنا سفيان الثوري ، وأدرك بنُورِ معرفته أنه يجب على الإنسان أن يكون صادقاً في دعائِه وطَلَبِه ، وأن يكون مع الدعاءِ أدبٌ ، وأن يكون صادقاً في أَدبه ، هذا الأدبُ الذي يخرجِ من خلال كلماتِ الدعاءِ الصادق ، التي تبرهِن على صِحة أفعال العبد واستقامته ، ولا يُفهمْ من ذلك أن سيدنا سفيان الثوري ـ الذي هو أحدُ أعلام المحدِّثين ، ومن كبارِ التابعين ـ أنه كانت الدنيا تشغَلُ قلبَه ، لا أبداً وإنما كانت تكلمة حسْب حاله وتمشياً مع مقامه ، فهي نفسَها التي قالتْ له ذات يوم : « نِعْمَ الرجلُ أَنت لولا رغبتُك في الدنيا » قال : « فبماذا رغبتُ؟ » قالت : « في الحديث » .

فلقد عدَّت كثرة الحديثِ والرواية ، شهوةً من شهوات الدنيا لا سبيل لها إلى قلوب المحبِّين ، أمثالِ سيدنا سفيان

---

(١) المناوي : ١/١٠٩ .

الثوري رضي الله عنه ، وكثيراً ما كانت تردِّدُ في مناجاتها :

« إذا كنتُ أعبدُك خوفاً من نارك فأدخلنِيها ، وإذا كنتُ أعبدُك طَمَعاً في جنتك فاحرِمْنيها ، أما إذا كنتُ أعبدُك من أجل محبَّتِك ، فلا تحرمني من مشاهدة وجهك » .

أجل ؛ إنها عبادةُ الأحرار ، ذوي القلوب والأبصار ، عبادة المحبين والمخلِصين ، لأنه جَلَّتْ قدرتُه ، جديرٌ بالحُب والعبادة والطاعة ، كيف لا ، وهو الذي جعل الغاية من خلقِنا العبوديةُ المطلقَة له جل جلاله؟! حيث قال :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

فقد زَهِدتْ رضي الله عنها في الدنيا وشهواتِها ؛ بل لقد حازت مرتبةَ خَواصّ الخَواصّ ، من الأنبياءِ والمقرَّبين ، حيث صامَت عن كلِّ ماسوى اللهِ سبحانه ، فلم يكُنْ همُّها في الآخرة أن تحظى بجنات النعيمِ ؛ بل لقد كانتْ تسعَى إلى ماهو أسمى من ذلك ، إنها تريد أن تتنعَّم بالنظر إلى وجهِ الله الكريم ، فقد كانت تحبُّ وترجو الظفَرَ بالزيادة التي أشار الله تعالى إليها بقوله : ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

فامرأة فرعون كانت تقول : ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي

﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] ، ولكنَّ رابعةَ عبدتْهُ حُباً له وشوقاً إليه ، لا حُباً في جنتِهِ أو رَهَباً من ناره!

كيف لا وهي التي تقول : « إنه إلهٌ يستحقُّ العبادة » .

وقد قيل لها مرةً : « إن فلاناً أقامَ ألفَ دليلٍ على وجود الله . » فضحكَتْ وقالت : « دليلٌ واحدٌ يكفي » قيل : « وما هو؟ قالت : « لو كنتَ ماشياً وحدَك في الصحراء ، وزلَّتْ قدمُك فسقطْتَ في بئْرٍ لم تستطعِ الخروج منها ، فماذا تصنع؟ » قال : « أنادي : يا الله!. . . . » قالت : « وذاك هو الدليلُ[1] .

* * *

---

(١) انظر كتاب تعريف عام بدين الإسلام للشيخ علي الطنطاوي ص ٤٦ .

رابعة والتّصُّوف

رابعة والتَّصُّوف

نهجت السيدةُ (رابعةُ) في سَيْرها هذا طريقَ « التصوفَ » وهو جوهر الإسلام وروحُه النابضة ، وحيويتُه الفعَّالة ، فالتصوفُ سموٌ وارتفاعٌ ، وطُهْرٌ وفضيلة وتزكية . ويتضح لنا هذا من تعريف القاضي ، شيخِ الإسلام ، زكريا الأنصاري رحمه الله تعالى للتصوف ، فيقول عنه :

« هو علم تُعرَف به أَحوالُ تزكيةِ النفوس » وتصفيةِ الأخلاق ، وتعميرِ الظاهر والباطن ، لنيل السعادة الأبدية »[1] .

فعِمادُ التصوف ـ كما يقول فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى

---

(١) على هامش الرسالة القشيرية ص ٧ .

رحمه الله ـ : « تصفيةُ القلب من أوضار المادة ، وقِوامُه صِلة الإنسان بالخالق العظيم ، فالصوفيُّ من صفا قلبُه لله ، وصَفَتْ لله معاملتُه ، فصَفَتْ له من الله تعالى كرامُته »[1] .

وهكذا كانت رابعةُ العدوية ، وهكذا كان نهجها في محبة الله ورسوله ، حتى بَلغتْ أوجَ الكمال في الإيمان ، وذَروة الأخلاق ، وقِمة التضحية ، فقد أنستْها حلاوةُ المحبّة مرارةَ الابتلاء ، وقسوة المِحَن ، وحملها دافعُ المحبة على بذْل كل غالٍ ونفيس في سبيل الظفرَ برضاء الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ .

وهذه الكلمات التي يرويها لنا المناوي ، تبرهِن على صدْق حُبها وعظيم أخلاقِها ، فيقول : « كانت رابعةُ تصلي ألف ركعة في اليوم والليلة » ، فقيل لها : « ما تريدين بهذا؟ » قالت : « لا أريد ثواباً ، وإنما أفعله لكي يُسرَّ به رسولُ الله ﷺ يوم القيامة ، فيقولُ للأنبياء : « انظروا إلى امرأة من أُمّتي هذا عملُها »[2] وحَرِيٌّ بالإنسان المسلِم أن

(١) حقائق عن التصوف ص ١٥ .
(٢) الكواكب الدرية : ١/١٠٨ .

يكون كذلك ، متخلِّقاً بعالي الأخلاق ، وأسمى الصفات ، ممتثلاً أمر الله عز وجل ، مزكِّياً نفسَه ، حتى يفوزَ بالفلاح الأبدي الذي تقررُه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ﴾ [الشمس : ٩] ، وقيل لرابعة : « كيف حُبك للرسول ﷺ؟ » فقالت : « إني والله لأحِبه حُباً شديداً ، ولكنَّ حُب الخالِق شغَلَني عن حُب المخلوقين » .

وليس معنى هذا أنها كانت فاترة الحُب للرسول عليه الصلاة والسلام ، كما يَفهم ذلك بعضُ خصوم الصوفية ، لا أبداً ، فمحبةُ الرسول كما يقول الأُستاذ طه سُرور :

« هي الكلمةُ الثانيةُ في الإسلام بعد التوحيد ؛ بل هي باب التوحيد ، والموصلةُ إليه »[1] . لقد كانت (رابعةُ) تعرُج بروحها إلى الحضْرة الإلهية متفانيةً في حُب الله تعالى الفناءَ الكامل بلا واسطة ، كانت بكل روحِها وحواسِّها ، وبكل ذرَّة من ذراتها متعلقةً بربِّها تعلقاً أشغَلَها عما سواه ، وهل بعد الحُب بين العبدوربه سموٌ وغايةٌ؟ .

☆ وأُحب أن أقول في هذا المقام : « إن التصوف ليس

---

(١) رابعة العدوية : طه سرور .

عِلْماً نتلقَّاه عن طريق القراءة والمطالعة ، ولكنه أسمى من ذلك ؛ فهو طُهْر وفضيلة ، وأخلاقٌ وإيمان ، وأذواقٌ ومَعارف ، لا نستطيع أن نفهمه ونستوعبه إلَّا بصُحبة المرشدين الكُمَّل ، ذوي الأذواقِ اللطيفة ، والقلوبِ الصافية ، الذين نَهَجوا على هدى الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وورثوا عنه العلم وعملوا به .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله في كتابه (أبو الحسن الشاذِلي) :

« فالصوفيُّ لا يكون صوفياً بالقراءة أو الدراسة أو البحث ، حتى ولو كانت هذه القراءة والدراسة في الكُتب الصوفية نفسها ، وفي المجال الصُّوفي خاصّةً ، وقد يكون شخصٌ من أعلمِ الناس بهذه الكُتب ، درسَها دراسةَ باحثٍ متأمِّل ، وعَرَف قديمها وحديثها ، وميَّز بين الزائف منها والصحيح ، وصنَّفها زمناً ، وميَّزَها أمكِنَةً ، وهو مع ذلك لا سهمَ له في قليلٍ أو كثير من المجالات الصُّوفية . لقد درس الإمامُ الغزالي رحمه الله تعالى كُتب الصوفية المحقِّقِين ، درسها دراسةَ تعمُّقٍ وتأمُّلٍ ، لقد درس كُتب الحارث المحاسِبي ، وكُتب أبي طالب المكّي ، وما رُوي عن الجُنيد

والشِّبلي وغيرِهم ، ثم اعترف بأن ذلك لم يجعلْه صوفياً ، ولو اقتصر على القراءة ـ مهما كانت عميقةً ـ لما كان له في التصوف نصيبٌ ، ليست قراءةُ كُتبِ الصوفية سُلَّماً يَرقى به الإنسان في معارج القُدُس ، فهذا ابنُ سينا الذي درس التصوفَ في كُتبه الأصلية ، وخالَطَ الصوفية وتحدَّثَ إليهم ، وكتَب في التصوف فصولاً تَوَّج بها كتابه الذي كان يَعتز به ، وهو كتاب : (الإشارات والتنبيهات) ومع كل ذلك ، فابنُ سينا لم يَصِرْ بذلك صوفياً ، ولم تجعله دراستُه للتصوف وكتابتُه عنه في عِداد الصوفية ، ثم إنه قد يكونُ الصُّوفيُّ أُمِّياً لم يقرأ فلسفةً ولم يُجهِد نفسَه في بحث »[١] .

يقول الأستاذ (رينيه جينو) الفيلسوفُ الفرنسي المعروف :

« ولابد في التصوف من شرط جوهري هو التأثير الروحي ، أو بتعبير أَدَقّ (البركة) ، وهي لا تَتَأتَّى إلاَّ بوساطة شيخ ، ومن هنا كانت الطُّرُق ، ومن هنا كانت السِّلسِلة ،

---

(١) أبو الحسن الشاذلي للشيخ عبد الحليم محمود ص : ٢٢٠ـ٢٢١ .

وهل السِّلسِّلة إِلا بركاتٍ تَنتقل من شيخٍ إِلى مُرِيد يوشِك أن يصبح شيخاً ، فيؤثرُ بِدَوْره في مريد أو مريدِين؟ » .

وتحدث الأستاذ أَبو الحسن الندْوِي عن الصوفية في كتابه : (المسلمون في الهند) فقال : « إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص ، واتِّباع السُّنة ، والتوبة عن المعاصي ، وطاعةِ الله ورسوله ، ويحذِّرون من الفحشاء والمنكَر ، ومن الأخلاق السيئة ، ومن الظلم والقسوة ، ويرغِّبونهم بالتحلِّي بالأخلاق الحسَنة ، وبالتخلِّي عن الرذائل مثل : الكِبْر والحسد ، والظلم والبغضاء ، وحُب الجاه ، وبتزكية النفس وإصلاحها ، ويعلِّمونهم ذكْرَ الله والنُّصْح لعباده ، والقناعة والإيثار ، وعلاوةً على هذه البَيْعة ـ التي كانت رَمْز الصِّلَة العميقة الخاصّة بين الشيخ ومُرِيديه ـ إِنهم كانوا يَعِظُون الناس دائماً ، ويحاولون أن يُلْهِبوا عاطفة الحُب لله سبحانه ، والحنين إِلى رضاه ، والرغبة الشديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال »[١] .

وأما الأستاذ أبو الأعلى المودودي ، فقد تحدَّث في

---

(١) المسلمون في الهند للعلامة أبي الحسن الندوي ص ١٤٠ .

كتابه : (مبادىء الإسلام) تحت عنوان (التصوف) ، فقال : « إن علاقة الفِقْه إنما تكون بظاهِر عمل الإنسان فقط ، فلا يَنظر إلاَّ هل قُمْتُ بما أُمرتُ به على الوجه المطلوب أم لا؟ فإن قُمتَ فلا تهمُّهُ حالُ قلبك وكيفيَّته .

أما الشيء الذي يتعلق بالقلب ، ويبحث عن كيفيَّتِهِ فهو التصوف « إن الفقْه لا ينظر في صلاتِك ـ مثلاً ـ إلا هل أتْمَمْتَ وضوءَك على الوجه الصحيح أَمْ لا؟ وهل صلَّيْتَ مولِّياً وجهك شَطْر المسجد الحرام أَمْ لا؟ وهل أديتَ أركانَ الصلاة كلها أَمْ لا؟ وهل قَرأْتَ في صلاتك بكل ما يجب أن تَقرأ فيها أَمْ لا؟ فإن قُمْتَ بكل ذلك ، فقد صَحَّتْ صلاتُك بِحُكْم الفقه .

إلا أن الذي يَهُمُّ التصوفَ هو ما يكون عليه قلبك حين أدائِك هذه الصلاة من الحالة ، هل أَنَبْتَ فيها إلى ربك أَمْ لا؟ وهل تجرَّدَ قلبُك فيها من هُموم الدنيا وشؤونها « أَمْ لا؟ وهل أنشأَتْ فيكَ هذه الصلاةُ خشيةَ الله واليقينَ بِكَوْنِه خبيراً بصيراً ، وعاطفةَ ابتغاءِ وجهِهِ الأعلى وحدَه أم لا؟ وإلى أي حد نزَّهَتْ هذه الصلاةُ روحه؟ وإلى أَي حَدٍّ أصلحَتْ أخلاقه؟ وإلى أي حَدٍّ جعلتْهُ مؤمناً صادقاً عاملاً بمقتَضَيات إيمانه؟ فعلى قَدْر ما تحصَل هذه الأُمور ـ وهي من غايات الصلاة

وأَغراضها الحقيقية ـ في صلاته ؛ تكون صلاتُه كاملة في نظر التصوّف ، وعلى قَدْر ما ينقُصُها الكمالُ من هذه الوِجْهة تكون ناقصة في نظر التصوف . وهكذا ، فلا يَهُمُّ الفقه في سائر الأحكام الشرعية إلا : هل أدى المرءُ الأعمالَ على الوجْه الذي أمرَه به لأدائها ، أَمْ لا؟

وأما التصوف فيبحث فيما إذا كان في قلبه شيء من الإخلاص ، وصفاء النيّة ، وصِدْق الطاعة عند قيامِهِ بهذه الأعمال » .

وحذَّر الأُستاذ المودودي من الدُّخَلاء الذين سَموا أنفسهم (بالصوفية) ، والتصوفُ منهم براءٌ فاستطرَد يقول :

« ولا يستحقُّ مَن لا يتبعُ الرسول ﷺ إتباعاً صحيحاً ، ومن لا يتقيّدُ بما أَرشد إليه من صراط الحق ، أن يُسَميَ نفسه صوفياً إسلامياً ، فإِن مِثْل هذا التصوف ليس من الإسلام في شيء أبداً » .

ثم قال : « إنما التصوف عبارةٌ ـ في حقيقة الأمر ـ عن حُبِّ الله ورسولِه الصادقِ ، بل الوُلوعُ بهما والتفاني في سبيلهما ، والذي يقتضيه هذا الولوعُ والتفاني هو ألاَّ ينحرف المسلِمُ قَيْدَ شَعْرة عن اتِّباع أَحكام الله ورسوله ﷺ ، فليس

التصوفُ الإسلامي الخالصُ بشيءٍ مستقلٍّ عن الشريعة ، وإنما هو القيامُ بأَحكامها بغايةٍ من الإخلاص وصفاء النّية وطهارة القلب »[1] .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

* * *

(١) مبادىء الإسلام لأبي الأعلى المودودي ، موضوع التصوف ص : ١١٤ـ١١٧ .

رابعة تذكر الله

رابعة تذكر الله

الذِّكْرُ هو الطريق الموصِلة إلى محبة الله سبحانه وتعالى ، فبالذِّكر يجِدُ المسلمُ انشراحاً للصدر ، واطمِئْناناً للقلب ، وسمواً للروح ، وإلى هذا المعنى أشار سبحانه بقوله : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] لهذا كانت السيدة (رابعة) مَثَلاً أعلى ، وقدوةً حسنة للعابدين والذاكرين ، فلقد أَفْنَت حياتها في الذِّكْر والمناجاة ، حتى انطبع اسم الله في قلبها ، وارتحلت عنها الغفلة ، وسرى اسمُ الله في عروقها ، ومُزِج بِروحها ، فكانت تجِدُ المذكور تجاهَها ، لا تغفُل عنه إذا غفَل الناس ، ولا تنساه إذا نسيَه الناس ، وكيف تنساه وهو الذي قال : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

ولم تكْتفِ بالذكر اللِّساني فحسب ؛ بل لقد تحقَّقَت بمقام

(الإحسان) الذي أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله جواباً لسؤال سفير الأنبياء جبريلَ عليه السلام :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

---

(١) يذكر أستاذنا الدكتور نور الدين عتر حفظه الله في كتابه « دراسات تطبيقية في الحديث النبوي » : المعاملات ص ٤٢٢ قولَه : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » . هذا من جوامع كَلِمِه ﷺ إذ هو شامل لمقام المشاهَدَة ومَقام المراقَبة ، ويتضح لك ذلك بأن تعرف أن للعبد في عبادته ثلاث مقامات :

الأوَّل : أن يفعلها على الوجه الذي تَسقط معه وظيفةُ التكليف باستيفاء الشرائط والأركان .

الثاني : أن يفعلها كذلك وقد استغرق في بِحار المكاشفة ، حتى لكأنه يرى الله تعالى ، وهذا مقامه ﷺ كما قال : « وجُعلت قُرّةُ عيني في الصلاة » ، لحصول الاستلذاذ بالطاعة ، والراحةِ بالعبادة ، وانسِداد مسالك الالتفات إلى غيره باسْتيلاء أنوار الكشف عليه ، وهو ثمرةُ امتلاء زوايا القلب من المحبوب واشتغالِ السِّرِّ به ، ونتيجتُه نسْيان الأحوال من المعلوم ، واضمحلالُ الرسوم .

الثالث : أن يفعلها وقد غَلَب عليه أن الله يشاهده ، وهذا =

وقد كانت رضي الله عنها تُنشد في هذا المعنى :

ولقـد جعلتُـكَ فـي الفـؤاد محـدِّثـي
وأبحْتُ جسمي ، مَن أراد جلوسي
فـالجسـم منـي للجليـس مـؤانِـسٌ
وحبيـبُ قلبـي فـي الفـؤاد أنيسـي(١)

وهذا لَعَمْري صفة الرجال ، وسِيَما الأحرار الذين ذَكَرَهم سبحانه بقوله : ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور : ٣٧] .

وقد كانت رضي الله عنها ـ كما يقول ابن الجوزي : راوياً عن عَبْدَةَ خادمةِ رابعة ـ تصلي الليل كلَّه ، فإذا طلع الفجر هَجَعَتْ في مُصَلّاها هَجْعة خفيفة حتى يُسْفر الفجر ، فكنتُ

= هو مقام (المراقبة) . فقوله ﷺ : « فإن لم تكن تراه » نزول عن مقام المكاشَفَة إلى مقام المراقَبَة ، أي : إن لم تعبُدْه وأنت من أهل الرؤية المعنوية ، فاعبُدْه وأنت بحيث أنه يراك ، وكلٌّ من المقامات الثلاثة إحسانٌ ، إلا أن الإحسانَ الذي هو شرط في صحة العبادة إنما هو الأول ، لأن الإحسان بالآخرين من صفة الخواصّ ، ويتعذر من كثرين .

(١) تنوير القلوب ص : ٥٠٥ .

أسمعُها تقول إذا وثبَتْ من مَرقدها هذا وهي فَزِعَة : « يا نفس! كم تنامي؟ وإلى كم تقومين؟ يوشِك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور » .

قالت : فكان هذا دَأْبها دهرَها حتى ماتت[1] .

ولله دَرُّ سيدنا الحسَن البصْري إذ يقول في هذا المعنى : « توبوا إلى الله تعالى من كثرة النوم والطعام » .

« فالذِّكْر صَقَّال القلوب ، ومفتاح باب النفَحَات ، وسبيل توجُّه التجلِّيات على القلوب ، وبه يحصُل التخلُّقَ لا بغيره ، لذلك فالمريد لا يصيبُه غَمٌّ أو هَمٌّ أو حَزَنٌ إلا بسبب غفلته عن ذكر الله ، ولو اشتغل بذكر الله لَدامَ فرحُهُ ، وقَرَّتْ عينهُ ، إذ الذكرُ مفتاح السُّرور والفَرَج ، كما أن الغفلة مفتاح الحَزَن والكَدَر »[2] .

إن هذه الكلمات المشرقة جَمعت خِصال الذكْرِ وفضيلتَهُ ، وبيَّنتْ منزلتَه ، فالذكْرُ يُحْيي القلوب كما يَحيي المطر الأرض الجَدْبة الجافّة ، فهو يبعث في الروح نشوةَ من الطَّرَب

---

(١) تذكرة الأولياء .

(٢) حقائق عن التصوف ، ص :١٣٧ .

والفرَح . والغافِلُ عن ذكْرِ الله ؛ قلبُهُ الفظُّ الغليظ لا يدرِك ذلك ، لأنه لم يَذقْه ولم يُطْرِب نفسه به ، فهو كالميت . وهذا يتبيَّن بوضوح من الحديث الذي يرويه لنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما قال :

« مَثَلُ الذي يذْكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه ، مَثَلُ الحيِّ والميت »[1] .

وما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لَيَبعثنَّ الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النورُ ، على منابرِ اللُّؤلُؤِ ، يغبِطُهم الناس ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء » قال : فجثا أعرابيٌّ على ركبتيه فقال : « يارسول الله حُلَّهُم لنا[2] نعرفْهم » قال : « هم المتحابّون في الله . مِن قبائلَ شتى وبلادٍ شتى ، يجتمعون على ذِكْر الله يذكرونه »[3] .

فقد كانت رضي الله عنها في مجالَسَةٍ دائمةٍ مع ربِّها ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدَّعَوات .

(٢) حُلَّهُم : صِفْهم لنا وعَرِّفنا أعمالهم .

(٣) رواه الطبراني بإسناد حَسَن ، كما في الترغيب والترهيب : ٤٠٦/٢ .

تخلو بنفسها معه ؛ تذكُرُه وتتفكَّر بدلائل عظمتِهِ ، وتنعُم بِقُرْبِهِ ومجالَسَتِهِ كما ورد :

« أهلُ ذِكْري أهلُ مجالَسَتي . . » .

وهكذا ، فحريٌّ بكل مسلم أن يحرَص على أن يجعل لنفسه أوقاتاً يخلو فيها مع خالقِهِ ، يحاسِب فيها نفسه ، ويراقِب فيها ربه سبحانه ، ويتفكَّرُ في آلائه وعظيمِ قدرتِهِ ، فهذه العُزْلة والخَلْوة تُعين العبدَ على التعبُّد والخشوع ، وتساعده أيضاً على معرفة نفسه الأمّارة بالسوء ، لأنه مَن عَرَف نفسَه بالعجز والتقصير ، عَرَف ربَّه بالقُدْرة والتدبير .

وقد ورد في الحديث : « مَن عَرَف نفسَه عَرَف ربَّه » .

ولنُصْغِ معاً ـ أخي القارىء ـ إلى قول سيدنا السَّريِّ السقْطِي(١) . رضي الله عنه في هذا المِضْمار ، وعلى هذا الصَّعِيد حيث يقول :

---

(١) هو : أبو الحسن السَّريّ بن المغلس السقَطي ، خالُ الجنيد وأستاذُه ، رضي الله عنهما ، مات ببغداد سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، وقبرُهُ بِالشونيزيةِ ظاهرٌ يُزار . من أقواله رضي الله عنه : « لا تصِحُّ المَحبة بين اثنين ، حتى يقول أحدُهما للآخر : ياأنا » .

« ما رأيت شيئاً أَحْبطَ للأعمال ، ولا أفسَدَ للقلوب ، ولا أسرَعَ في هَلاك العبد ، ولا أدْوَم للأحزان ، ولا أقرَبَ للمَقْتِ ، ولا أَلْزَمَ لمَحَبة الرياء والعجب والرياسة ، من قِلَّةِ معرفةِ العبدِ لنفسِهِ ، ونَظَرِهِ في عيوب الناس ، لا سيما إن كان مشهوراً معروفاً بالعبادة! » .

ومن هنا كان للعُزلة والخَلْوة أهميتها الكبرى في استقامة المرء وحُسْن سلوكه وسيرته ، وحكمةُ ذلك كما يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله :

« إن للنفس البشرية آفاتٍ ، لا يَقْطع شِرَّتها إلا دواء العُزلة عن الناس ، ومحاسبتُها في نجوة من ضجيج الدنيا ومظاهرها ، والكبرُ والعُجْبُ والحسدُ والرياءُ ، وحُبُّ الدنيا ، كلُّ ذلك آفاتٌ من شأنها أن تتحكم في النفس ، وتتغلغلَ إلى أعماق القلب ، وتعملَ عملها التَّهْديمي في باطن الإنسان ، على الرغم مما قد يتحلى به ظاهرُه من الأعمال الصالحة والعبادة المَبْرُورَة ، ورغم ماقد ينشغل به من القيام بشؤون الدعوة ، والإرشاد ، وموعظة الناس ، وليس لهذه الآفات من دواء إلا أن يَخْتَلِ صاحبُها بين كل فترة وأخرى مع نفسه ، ليتأمَّل في حقيقتها ومنشئها ، ومدى حاجتها إلى

عناية الله تعالى وتوفيقه ، في كل لحظة من لحظات الحياة .

ثم لْيتأملْ في الناس ، ومدى ضَعفهم أمام الخالق عز وجل ، وفي عدم أي فائدة لِمَدْحهم أو قَدْحِهم ، ثم لْيتفكرْ في مظاهر عظَمة الله . وفي اليوم الآخِر ، وفي الحساب وطوله . وفي عظيم رحمة الله . وعظيم عقابه ، فعند هذا التفكير الطويل ، المتكرر ، في هذه الأمور ؛ تتساقط تلك الآفاتُ اللاحِقةُ بالنفس ، ويَحْيَىَ القلب بنور العرفان والصفاء ، فلا يبقى لِعَكَر الدنيا من سبيل إلى تكدير مرآته .

وشيءٌ آخر له بالغ الأهمية في حياة المسلمين عامةً . وأرباب الدعوة خاصّةً ، هو تربيةُ محبة الله عز وجل في القلب . فهو مَنْبَعُ التضحية والجهاد ، وأساس كل دعوة متأجِّجة صحيحة ، ومَحَبةُ الله تعالى لاتأتي من مجرد الإيمان العقلي به ، فالأمور العقلانية وحدَها ، ما كانت يوماً ما لتؤثر في العواطف والقلوب ، ولو كان كذلك ؛ لكان المستشرقون في مقدمة المؤمنين بالله ورسوله ، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حُباً للّه ورسوله ، أوَسمعْتَ بأحد من العلماء ضحَّى بِرُوحه . إيماناً منه بقاعدة رياضيّة أو مسألة من مسائل الجبر . . ؟! ، وإنما الوسيلة إلى محبة الله تعالى ـ بعد الإيمان

به ـ كثرةُ التفكير في آلائه ونِعَمِه ، والتأمّلُ في مدى جلاله وعظمته ، ثم الإكثارُ من ذِكْره سبحانه وتعالى بالقلب واللسان . وإنما يتم ذلك بالعُزْلة والخَلْوة ، والابتعادِ عن شواغِلِ الدنيا وضوضائِها ، في فَتَراتٍ متقطِّعة متكرِّرَة من الزمن ، فإذا قام المسلم بذلك وتهيأ له أداءُ هذه الوظيفة ، نُبتتْ له من ذلك في قلبه محبةٌ إلهيّةٌ عارمة . تجعله يستصغِر كل عظيم ، ويحتقِر كل مُغْرِية من المُغْرِيات ، ويستهين بكل إيذاء وعذاب ، ويستعلي فوق كل إذلال أو استهزاء . فتلك هي العُدة الكبرى التي ينبغي أن يتسلح بها الدعاةُ إلى الله ، وتلك هي العُدة التي جهَّز الله بها حبيبه محمداً ﷺ للقيام بأعباء الدعوة الإسلامية »[١] .

وقد روى العطارُ عن سفيان الثوري قال :

« كنتُ عند رابعة ذات ليلة فَصَلَّتْ حتى مطلع الفجر ، وصلَّيتُ أنا كذلك . وفي الصبح قالت : علينا أن نصوم اليوم شُكْراً على هذه الصلوات التي أقمناها الليلة »[٢] .

---

(١) فقه السيرة ، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

(٢) تذكرة الأولياء .

فهي بذلك ترى عبادتَها نعمةً من الله وفَّقها الله للقيام بها ، ومن حقها أن تشكره على توفيقه بعبادة جديدة .

وهكذا يجب على كل مسلم أن يرى عبادته توفيقاً من الله سبحانه وتعالى عليه أن يشكره عليها . لذلك وَرَدَ في الأَثَر : أن سيدنـا داود عليه السلام قال :

« أي ربّ! كيف أشكُرُك وشُكْري لك نعمةٌ من عندك؟ » فأوحى الله إليه : « الآن شكرتَني »[١] .

يقول الأُستاذ طه سرور : « وقد أَجْمَعَ رجالُ التاريخ ، على أن (رابعةَ) كانت تقوم الليل لربِّها ، وأنها مكَثَتْ أربعين عاماً تصلِّي الصبح بِوُضوء العشاء ، وأنها خلال هذه السنوات الطِّوال ، لم تكن ترفع رأسها إلى السماء حياءً من الله تعالى ، وأن لسانَها لم يَفْتُر أبداً عن ذِكْر ، أو نجوى ، أو قراءة قرآن »[٢] .

وما أَلَذَّ وأَروعَ الكلمات التي رددها مالك بن دينار[٣] قائلاً :

---

(١) البرهان المؤيد ، لسيدي أحمد الرفاعي ص ٣٣ .

(٢) رابعة العدوية ص ٩٠ طه سرور .

(٣) توفي رضي الله عنه سنة إحدى وثمانين ومائة .

« مَن لم يأنسْ بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين ، فقد قَلَّ علمُهُ ، وعَمِيَ قلبُهُ ، وضَيَّعَ عمره . . » ولله دَرُّ القائل :

بقلبكَ كُنْ بالحُب منصبِغاً ، وكُنْ
بظاهِرِك المشهودِ في زَيِّ أجنبي
وهذا طريقٌ نادرٌ عُزَّ أهلُه
على أنهم فازوا بأَعذبِ مشربِ

* * *

الزهد عند رابعة

الزهد عند رابعة

لقد زهِدتْ (رابعةُ) من حب الدنيا وشهواتها ، ومَلأَت قلبها بحُبِّ الله ومعرفته ؛ والحقيقةُ : إن رابعةَ هي : « أولُ من نقل الزُّهدَ إلى الأُفق الصوفيّ الإسلامي ، وهي أولُ من حَوّل الزهدَ من الخوف إلى الحُبّ ، ومن الرُّعب إلى المعرفة ، ومن الحِرْمان إلى الرضا »[1] .

وقبل أن نخوضَ في البحث عن زُهْدِ (رابعة) ، لا بد أن نذكُر حديثَ رسول الله ﷺ ، الذي يبيِّن لنا فيه المقصودَ الحقيقي من الزُّهد حين قال :

« الزَّهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة

---

(١) طه سرور ص ١٠٥ .

المال . ولكن الزَّهادة أن تكون بما في يدِ الله تعالى أوثقُ منك بما في يدك ، وأن تكونَ في ثواب المصيبة ـ إذا أُصبت بها ـ أرغبُ منك فيها لو أنها أُبقيتْ لكَ » . وإذا ما تصفَّحَ المؤمنُ كتاب الله عز وجل ، وجدَ أن هناك كثيراً من الآيات الكريمة التي تَصِفُ الدنيا وتقلِّلُ من شأنها ، وأنها فانيةٌ زائلةٌ ، وأن الآخرةَ هي دارُ البقاء . كل ذلك من أجل أن يَزْهَد الناس فيها فيخرجوها من قلوبهم ، كي لا تشغلَهم عن الهدف الأساسي الذي خُلقوا من أجله ، ألا وهو عبادة الواحد القهَّار . يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر : ٥] . ويقول أيضاً : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

فالزهد عند السَّادة الصُّوفية مرتَبَةٌ قلبيّةٌ ، لا بد للإنسان المسلم من أن يكون على شيء منه إن لم يكن الزهدُ بالكليّة . ومن المؤسف أن نجد اليوم أكثرَ المسلمين قد صَرفُوا جميع طاقاتهم وأَفعالهم إلى هذه الدنيا الفانية . وإلى جَمْع حُطامها الزائل . ولم يفكروا ـ في يوم من الأيام ـ بدار القَرار وما فيها ؛ وهذا هو الجَهْل بعينه ، لذلك لم تَصلْ السيدةُ (رابعةُ)

إلى ما وصلَتْ إِليه من المقامات ، إلاَّ بإِعراضها عن الدنيا وشهواتها ، وبإِقبالها على الله سبحانه ، والإخلاص له ، فقد علمتْ في قَرارة نفسها أن حُبّ الدنيا من أكبر الكبائر ، وهو رأس كل خطيئة ، وهي تودي بصاحبها إلى الغوص في بحر الظلمات والعصيان .

وها هو سيدنا لقمان الحكيم رضي الله عنه يبين لابنه حقيقة الدنيا ، وكيفيّةَ النجاة من إغوائها فيقول له موصِياً :

« يابُني إِن الدنيا بحرٌ عميق ، غَرِقَ فيه ناسٌ كثيرون ، فَلْتَكُنْ سفينتُك فيها تقوى الله تعالى ، وحَشْوُها الإيمان بالله تعالى ، وشراعُها التوكُّلُ على الله عز وجل ، لعلك تنجو وماأراك ناجياً! »

ولهذا يقول سيدنا الحسن البصْري رضي الله عنه :

« ما عجبْتُ من شيء كعجَبي من رجل لا يحسِبُ حبَّ الدنيا من الكبائر ، وأيْمُ الله! إِن حُبها لمن أكبر الكبائر ، وهل تشعَّبَتِ الكبائر إلا من أجلها؟ وهل عُبدتِ الأصنام وعُصي الرَّحمن إلا لِحُبّ الدنيا وإِيثارها »؟! .

رُوي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقف

بأصحابه على مزبَلَة ، فأَطال الوقوف حتى أضجَرَهم ، فقالوا : مالك حَبَسْتَنا هنا؟ فقال :

« هذه دنياكم التي تتنافسون عليها »!! .

وعلى هذا المِنْوال سارَتِ السيدةُ (رابعةُ) رضي الله عنها ، لأن الزهد هو من الخُطُوات الأُولى في السيرِ إلى الله تعالى ، الأمرُ الذي جعل السادة الصوفية يعدّونه مرتبَةً قلبيةً ، وقد عَبّر سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن الزهد بقوله :

« أَخْرِجِ الدنيا من قلبكَ ، وضعْها في يدِكَ ، أو في جيبك ، فإِنها لا تضرُّك » .

فللزُّهد مقامُه العالي الرفيع في التصوف الإسلامي ، لأَنه الطريقُ الموصِلَةُ إلى مَحَبة الله تعالى ، وقد دعا رسولُنا الكريم ﷺ إليه في أحاديث كثيرة ، وعدّه وسيلةً لِنَيل محبة الله ورضوانه .

فقد روى سهلُ بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال : « يارسول الله دُلّني على عمل إذا عملتُهُ أحبّني اللهُ وأحبَّني الناسُ » .

فقال له : « ازهَدْ في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أيدي الناس يحبُّوك »[١] .

وقد عَرَّفَه سيدنا إبراهيمُ بن أَدهم رحمه الله تعالى بقوله :

« هو فراغُ القلب من الدنيا ، لا فراغُ اليد ، وهذا زهدُ العارفين . وأعلى منه زهدُ المقربين فيما سوى الله تعالى من دُنيا وغيرها ، إذ ليس لصاحب هذا الزهد إلاَّ الوصول إلى الله تعالى والقُرْب منه »[٢] .

ويقول فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله في تعريفه أيضاً :

« الزهد تفريغُ القلب من حُب الدنيا وشهواتها ، وامتلاؤه بحُب الله ومعرفته ، وعلى قَدْر تخلُّصِ القلب من تعلُّقاتهِ بزخارف الدنيا ومشاغلها ، يزدادُ بالله تعالى حُباً وتوجُّهاً ومراقَبَة ومعرفة » ولهذا عَدَّ العارفون الزهدَ وسيلةً للوصول

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد .
(٢) الفتوحات الوَهْبيّة بشرح الأربعين حديث النووية ، للشيخ إبراهيم الشبرخيتي .

إلى الله ، وشرطاً لنيل حُبه ورِضاه ، وليس غايةً مقصودةً لذاتها »[١] .

وللسيدة (رابعة) أقوال كثيرة عن الزهد ، حيث كانت القَبَسَ الذي اهتدى به رجال التصوف من بعدها ، ولا تزال ، فقد قالت : « لو كانت الدنيا لِرَجل ما كان بها غنياً »! فلما سُئلت عن معنى ذلك قالت : « لأنَّها تفنى » .

وقد روى الهجوري في كشف المحبوب قال : « جاء أمير البصْرة إلى (رابعة) يعودُها ، وقد حمل إليها أَموالاً كثيرة ، وسألها أن تستعين بها على حياتها فَبَكَتْ ثم رفعتْ رأسها إلى السماء ثم قالت :

« هو يعلم أني استحي منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها ، فكيف آخذها ممن لم يملِكْها؟! » ، وحذَرت أمير البصْرة أن يعود إلى مثلها .

نعم ، هكذا تعلمُ (رابعةُ) كيف يكون الزهد وكيف يتحقَّقُ ، إنها بذلك تعلِنُ عن نفسها أن الدنيا ليس لها مَدخل أو طريق تسير من خلاله إلى قلبها وتفكيرها ، ولقد كانت

---

(١) حقائق عن التصوف ص ٣٤٦ـ٣٤٧ .

كذلك ، فهي تخجل حتى أن تسأل الله سبحانه وتعالى الدنيا ، فكيف تسألُها العبادَ؟ بل كيف يمكِنُها أن تَقْبل منهم شيئاً ، وهم كلهم عبيدٌ لخالِقِ هذه الدنيا؟! .

وجاء سفيانُ الثوري يوماً ليزورَها ، فرأى على بابها تاجراً يبدو عليه التردُّدُ ، فسأله عن حاجته ، فقال الرجل : « أحضرت كيساً من الذهب لرابعةَ ، وإنني مضطربٌ لا أدري أَتقبلُه أم ترفِضُه؟ فادْخلْ ـ بالله ـ وأنقذني من هذا الحَرَج . فدخل سفيان وأخبرها أمر الرجل ، فقالت : « إن الله يرزق عباده حتى الذين هم عنه لاهون ، فما بالُكَ بِمَنْ يكون في سويداءِ قلبِهِ مَحَبةٌ يقف دونها الحصر لفاطر السموات عز وجل؟! » .

لقد رفضت كلَّ شيء ، لأنها تعرف جيداً أَن الرزّاق هو الله سبحانه ، وهو المتكفِّل بعباده جميعاً ، وإلى هذا المقام أشار عليه الصلاة والسلام بقوله : « لو توكَّلْتم على الله حقَّ توكُّله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً وتروحُ بِطاناً »[1] .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والنسائي ، والحاكم ، والترمذي وصححاه .

إنه يرزق كلَّ حيٍّ حتى العاصين والمُذْنبين والمَطْرودين عن بابه ، فكيف بالعابدين المُحِبِّين؟! فهي إِذاً لايمكن أن تقبل هديةً[1] أو مساعَدة من عبد من عبيده ، ما دامت متيقِّنَة أن الله كفيل بها وبِرِزْقها كما قال تعالى :

﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] .

لذلك لما سُئل أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه « من أين تأكلُ؟ » فقال : « إِن مولايَ يُطْعِم الكلب والخِنْزير ، أفلا يطعم أبا يزيد؟! » .

وما أروع الإمام الشافعي رضي الله عنه حينما سَطَّر أبياتَه في هذا المقام! قائلاً :

توكلْتُ في رزقٍ على الله خالقي
وأيقنتُ أن الله لا شك رازقي
وما يكُ من رزقي فليس يفوتُني
ولو كان في قاعِ البحار العوامِقِ

---

(١) وليس معنى هذا أن الهدية حرام ، ولكنها كانت تتحرى المالَ الحلالَ ، وتتخشى المالَ الحرامَ ، ولهذا قال النبي ﷺ : « كُنْ وَرِعاً تَكُنْ أعْبَدَ الناس لله».

سيــــأتــــي بـــه الله بفضلـــــه

ولـو لـم يكـن منـي اللسـانُ بنـاطِـقِ

ففي أي شيء تذهَبُ النفسُ حسرةً

وقـد قَسَّـم الـرَّحمـنُ رزقَ الخـلائِـقِ

أجـل لقـد زهِـدتْ رابعـةُ فـي الـدنيـا وتحمَّلَـتِ المشـاقّ والمصاعِب ، وكانت صابرة في جميع أحوالها ، علَّها أن تحظى في النهاية برضا محبوبها ، وكثيراً ما مَرَّتْ بها مراحلُ شديدة وعَصِيبة ، ومِحَنٌ عظيمة هائلة ، وهي الصابرةُ المحتسِبةُ ، الراضيةُ بقضاء الله وقَدَره .

لقد كانت رضي الله عنها تنام على حصيرة بالِيَة ، وكان موضِع الوسادة قطعةٌ من الآجُرِّ ، وكانت تشرب من إناءٍ مكسور ، وتطوي ليلها مُسَهَّدَة ، تُصَلي لِبارِئها وتناجيه بقولها :

وزادي قليـــلٌ مـــا أراه مُبَلِّغـــي

أَلِلـزَّاد أبكـي أم لِطُـوْل مسـافتـي؟!

أتُحْـرِقُنـي بـالنـار يـا غـايـةَ المُنَـى؟!

فـأيـن رجـائـي فيـك أيـن مخـافتـي؟

ولها بذلك الأُسْوة الحسَنة في رسول الله ﷺ ، وذلك فيما رواه ابن مسعود رضي الله عنه قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثر في جَنْبه الشريف ، فقلنا : يارسول الله لو اتخذْنا لَكَ وِطاءً! فقال : « مالي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلَّا كَراكِبٍ استَظَلَّ تحت شجرة ثم راح وتركها »[١] .

ولْنُصْغِ الآن إلى سيدنا عبد الله بن عباس ، حَبْر هذه الأمة ، يحدثُنا عن الدنيا ويبين لنا جوهَرَها بهذا المِثال الرائع . يقول رضي الله عنه :

« يؤتى يومَ القيامة بالدنيا على شَكْل عجوز ، زَرْقاء شَمطاء ، أَنيابُها باديةٌ ، ومشوَّهٌ خلقُها ، فتُشْرِف على الخلائق ، فيقال لهم : « أتعرفون مَن هذه؟ »

فيقولون : « نعوذ بالله من معرفة هذه » . فيُقال : « هذه الدنيا التي تناحَرْتُم عليها ، بها تقاطَعْتم الأرحام ، وبها تحاسَدْتُم . وتباغَضْتُم ، واغْتَرَرْتُم ، ثم يُقْذَف بها في جهنم » ، فتنادي : « أي ربي! أين أتباعي وأشياعي »؟ فيقول الله عز وجل : « ألْحِقوا بها أتباعَها وأشياعها » .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد وقال : حديث صحيح .

لقد علمتْ ـ رضي الله عنها ـ حقيقةَ هذه الدنيا الفانية ، ومتاعَها الزائل ، لأنه لابد من يوم تضمحِل فيه هذه الزخارف الفانية ، والبوارِق الخادعة ، ولا ينفعُ الإنسانَ حينئذ مالُه ، ولا جاهُه ، ولا أَولادُه ، سوى عملَه الصالح ، فما عليه إلاّ أَن يَدَّخِرَه ويَكْنِزَه ليوم الحساب . ولله دَرُّ أَحدهم إذ يقول :

وإِذا افْتَقَرْتَ إلى الذخائر لم تجد
ذخــراً يكــون كصــالــحِ الأعمــال

قيل لسيدنا إبراهيم بن أَدهم رضي الله عنه : « كيف حالُك؟ » فأَنشد :

نُــرَقِّــعُ دُنيــانــا بتمــزيــق دِينِنــا
فــلا دِينُنــا يبقــى ولا مــا نُــرَقِّــعُ
فطــوبــى لعبــد آثَــرَ اللهَ ربَّــهُ
وجــاد بِــدُنْيــاه لمــا يتــوقَّــعُ

بهـذا المعنى ، وعلى أساس هـذا المفهوم ، عـرفـتْ (رابعةُ) الدنيا ، ولذلك كانت تحمل كَفَنَها معها أينما ذهبت ، وكان كفنُها عبارةً عن قطعة من الصوف الأسود!

وقيل : كَتَبَ عمرُ بن عبد العزيز إلى الحسن البصْري

« أُكْتُبْ إِليَّ يا أبا سعيد بِذَمِّ الدنيا » . فكَتَب إِليه[1] :

« أما بعد ، فيا أمير المؤمنين! إن الدنيا دار ظَعْنٍ وانتقال ، وليست بدار إِقامة على حال ، وإِنما أُنزل إِليها آدمُ عقوبةً ، فاحذَرْها! فإن الراغبَ فيها تاركٌ ، والغنيَّ فيها فقيرٌ ، والسعيدَ من أهلها مَن لم يتعرَّضْ لها . إِنها إِذا اختبَرَها اللبيب الحاذق وجدها تُذِل من أَعزَّها ، وتفرِّقُ من جمَعَها! فهي كالسُّمِّ يأكلُه من لا يعرفه ، ويرغبُ فيه مَن يَجهلُه ، وفيه ـ واللهِ ـ حتفُه ، فكُنْ فيها ـ ياأمير المؤمنين ـ كالمداوي جراحَه ، يحتمي قليلاً ، مخافةَ ما يكون طويلاً . الصَّبرُ على لأوائِها أيْسَرُ من احتمال بلائِها . واللبيبُ من حَذرهَا ، ولم يَغْتَرَّ بزينتِها ، فإِنها غدارةٌ خَتَّالةٌ خدّاعة ، قد تعرضَتْ بآمالها ، وتزيَّنَتْ لِخُطّابِها ، فهي كالعروس : العيونُ إِليها ناظرة ، والقلوبُ عليها والِهَة ، وهي ـ والذي بعث محمداً بالحق ـ لأزواجها قاتلةٌ ، فَاتَّقِ ياأمير المؤمنين صُرْعَتَها ، واحْذَر عَثْرتها ، فالرَّخاءُ فيها موصولٌ بالشِّدة والبلاء ، والبقاءُ مؤدٍّ إِلى الهَلَكة والفناء .

---

(١) انظر كتاب الحسن البصري للإمام ابن الجوزي ص : ٨٠ـ٨٢ .

واعلمْ ياأمير المؤمنين! أن أمانيها كاذبةٌ ، وآمالَها باطلةٌ ، وصفوَها كَدَرٌ ، وعيشَها نَكَدٌ ، وتاركُها موفَّقٌ ، والمُتَمسِّكَ بها هالكٌ غَرِقٌ ، والفَطِنَ اللبيبَ مَن خافَ ما خوَّفَه اللهُ ، وحَذِرَ ماحَذَّرَهُ ، وقَدِرَ من دار الفناء إلى دار البقاء فعند الموت يأتيه اليقين .

الدنيا ـ والله ياأمير المؤمنين! ـ دارُ عقوبة ، لها يَجْمَع من لا عقل له ، وبها يَغْتَرُّ مَن لا عِلْم عنده ، والحازمُ اللبيبُ مَن كان فيها كالمداوي جِراحَه يصبر على مرارة الدواء ، لِمَا يرجو مِن العافية ، ويخافُ من سوء عاقبة الدار .

والدنيا ـ وأيْمُ الله ياأمير المومنين! ـ حُلْمٌ ، والآخرةُ يقظةٌ ، والمتوسِّطُ بينهما الموتُ ، والعبادُ في أضغاث أحلام ، وإني قائِل لكَ ياأمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تَنْجُ منها من ذي عظيمة
وإلاَّ ، فإني لا أَخالُكَ ناجياً »

ولما وصل كتابه إلى عُمَر بن عبد العزيز ، بكى وانتَحَب ، حتى رَحِمه من كان عنده ، ثمّ قال : « يرحمُ اللهُ الحسَن ، فإنه لا يزال يوقظنا من الرَّقْدة ، وينبِّهنا من الغفلة ، فلله هو

مِن مشفقٍ ما أنصَحَهُ! ، ومن واعظٍ ما أصدَقَهُ وأفصَحَهُ!! » .

وكَتب إليه عمرُ بن عبد العزيز : « وصلَتْ مواعِظُكَ النافعةُ فاشتفيتُ بها » ولقد وصفتَ الدنيا بصِفَتِها ، والعاقلُ من كان فيها على وَجَلٍ ، فكأن كل مَن كُتب عليه الموتُ من أهلها قد مات » والسلام عليك » ورحمة الله وبركاته » . فلما وصل كتابُه إلى الحسن قال : « لله أمير المؤمنين من قائلٍ حقاً وقابِلٍ وَعْظاً » لقد أَعظمَ اللهُ جَلَّ ثناؤُه بوَلايته المِنَّة ، ورحم بسلطانِهِ الأُمة ، وجعله بَرَكة ورحمة » .

وكَتَبَ إليه : « أما بعد . فإن الهَوْل الأعظمَ ، والأمرُ المطلوبُ أمامَك ، ولا بد من مشاهدتك ذلك » إما بنجاة أو بعَطَبٍ » .

وهكذا كانت (رابعةُ) المَثَلَ الأعلى في التضحية والإيثار ، ومجاهدةِ النفس ومغالَبةِ الهوى ، دون أن تستهويَها زخارفُ الدنيا ، فكانت القَبَسَ المنير لكل من سيأتي بعدها .

يروي لنا المناوي : أنها خاطَتْ بعض قميصها » في بعضِ ضوءِ مَشْعلة سُلْطانية ، فَفَقَدَتْ قلبَها زماناً حتى تذكَّرتْ ، فمزقتِ القميص ؛ فعاد قلبُها!! ، ولذلك لما جاءت أُختُ

بشرِ الحافي[1] رضي الله عنه إلى الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه وقالت له : « إنا نغزل على سطوحنا ، فتَمُرُّ المشاعل » فيقعُ الشعاعُ علينا ، فهل لنا أن نغزل في شعاعها؟!

فقال لها : « مَن أنتِ؟ » قالت : « أنا أُختُ بشر الحافي » ، فبكى حتى أبكى من حولَه ثم قال لها : « مِن بيتكم خرج الورعُ والزهد ، لا تغزلي في شعاعها ؛ فأهلُ بشرٍ لا ينبغي لهم ما يُباحُ لغيرهم » .

فَلَكِ اللهُ يا رابعة! يا صاحبةَ الإيمان العميق! ، يامَن تورَّعْتِ أن تَخيطي قميصك على ضوء المشاعل العابرة التي لا تملكينها! ، بل وكيف يُمكِنكِ ـ وأنت العابدةُ الزاهدةُ الورِعة ـ أن تستعملي هذا الضوء لِصالحكِ ، مادام هذا الضوء مِلْكاً للسلاطين ، مِلْكاً للمستبدِّين الظالمين » الذين شغلَتْهم

---

(١) هو أبو نصر بِشْر بن الحَرْث الحافي رضي الله عنه ، أصلُه من (مَرْوَ) سكَنَ بغداد ومات بها في العاشر من مُحَرّم سَنَة سبع وعشرين ومئتين » وكان عالِماً وَرِعاً كبير الشأن ، من أقواله : « لا يجد حلاوة الآخرة رجلٌ يُحِبُّ أن يعرفَه الناس » أي : يُحِب أن يطَّلعَ الناسُ على صِفات كماله .

الدنيا ومافيها من أهواء ، وشهوات ، وتَرَفٍ ، عنِ التطلُّع إلى الحياة الآخرة .

أخي القارىء :

نِعْمَتِ الدنيا مطيةَ الآخرة ، فتزوَّدْ منها ضمنَ هذا المفهوم ما أمكَنَكَ! والعقلاءُ استطاعوا أن يستخدموا الدنيا ، ولم تستطعِ الدنيا الدخولَ إلى قلوبهم ، فاحذَرْ أن تَغُرَّكَ وتُبْعِدَكَ عن الله سبحانه وتعالى . وصدق الله العظيم حيث يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر : ٥] .

فنرجو الله عز وجل أن يجعلَنا من الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه إنه على مايشاء قدير .

* * *

الحبُّ عند رابعة

الحبُّ عند رابعة

أَفْنتْ (رابعة) حياتها في سبيل الوصول إلى أَعلى المقامات ، والدرجات ، إلى أن وصلت إلى مقام الحب ، فالحب هو مقام (رابعة) ، وهو أعلى المقامات عند أهل التصوف .

يقول نيكلسون في دراساته عن الصوفية في الإسلام :

« لقد رسمت (رابعةُ) مَعَالِم الطريق ، فاندفع الموكِب الصوفيّ يسير في سرعة خاطفة على نهجِها في الحُب والمعرفة » ، فكثيراً ماكانت تهتف في مناجاتها قائلة :

« يارب أتُحْرِق بالنار قلباً يحبُّك ، ولساناً يذكُرك » وعبداً يَخْشاك !؟ » ، وكانت تقول أيضاً :

« يارب اجعل النارَ لأعدائكِ ، والجنةَ لأحِبّائِك » وأما أنا فَحَسْبي أنت! » .

من خلال هذه المناجاة يتَّضح لنا جيداً ما هدفُ (رابعةَ) الأسمى ، وما غايتُها القصوى . إنه الله سبحانه وتعالى الذي أَفنَتْ حياتَها في حُبّه ، فهي لا تريد الجنة . ولا تخاف النار ، إنما تخاف الواحد الجبّار فقط ، لا شيء سواه ، ولا شيء معه . وبذلك كانت (رابعةُ) خيرَ مِثال للعارفين . وخيرَ قُدوة للمُرِيدين . وخير صورة للمؤمنين . لقد هَجَرتْ كل شيء من أجل ربِّها ، حتى النومَ الذي هو راحةُ البَدَن ، أما هي ، فَراحَةُ بَدَنِها في مناجاتها وتبتُّلها إلى الله سبحانه وتعالى ، لا تقصِدُ بذلك الظفَر بجنة أو حيازة مرتَبَةٍ ، وإنما قصدُها ومُرادُها مولاها الكريم سبحانه ، ولله دَرُّ أحدهم إذ يُنشِد في هذا المعنى :

ومــا مقصــودُهُــم جنــات عَــدْنٍ
ولا الحــورُ الحِسَــان ولا الخِيــامــا
ســوى نَظَــرِ الجليــلِ وذا منــاهــم
وهــذا مقصِــد القــومِ الكِــرامــا

ولقد سَلَكَ طريقَها هذه الكثيرُ من السلَف الصالح رضوان الله عليهم ، وكثيرٌ من الأولياء والعارفين ، فها هو ذا

أبو يزيد البسطامي[1] رضي الله عنه يهتِف في وَجْدِه ونَشْوته قائلاً : « وما الجنة؟! إنها لُعبة الصبيان ونعيمهم ، أمّا أنا ، فأطلبُ وجه الله ، هو جنّتي ونعيمي ، هو بَهْجتي وأُنسي وغايتي » .

﴿ وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ القيامة : ٢٢-٢٣] .

وسُئِل سيدي محيي الدين بن العربي عن هذه المَقالة التي قالها أبو يزيد : فقال : « وما فيها؟! لقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : « اللهُّم إني أسألُكَ لَذَّةَ النظر إلى وجهِكَ الكريم والشوقَ إلى لِقاك » . تقول خادمتُها عبدَةُ[2] : « كانتْ لرابعةَ أحوالٌ شتى ، فَمَرَّةً يغلِب عليها الحُب ، ومرّة يغلب عليها الأُنس ، ومرة يغلب عليها الخوفُ ، ومرة يغلب عليها البَسْطُ ، فسمعتُها في الحُب تقول :

حبيبـي ليـسَ يَعْـدِلُـهُ حبيـب
ولا لِسِـواه فـي قلبـي نصيـب
حبيبـي غـاب عـن بَصَـري وشَخْصـي
ولكـنْ فـي فـؤادي مـا يَغيـب

---

(١) توفي رضي الله عنه سَنَة ثمان وثلاثين وستمائة .
(٢) رابعة العدوية طه سرور ص ١٣٠ .

وسمعتُها في حالة الأُنس تقول :

ولقـد جعلتُـكَ فـي الفـؤاد محـدِّثـي
وأَبحـتُ جسمـي مـن أَراد جلـوسـي
فـالجسـمُ منـي للجليـس مـؤانِـسٌ
وحبيـبُ قلبـي فـي الفـؤاد أَنيسـي

أجل! لقد عاشت (رابعةُ) في جَوٍّ من الحُب الصادق الذي لا يُمْكِن وَصْفُه ، لأن المحبة أرفعُ وأكبرُ من أن توصَف أو تُعرَف! » .

« والمحبة لا تُحَدُّ بحدٍّ أوضحُ منها ، والتعاريفُ والحدود لا تزيدها إلاَّ خَفاءً ، فتعريفُها وجودُها ، إذ التعاريف للعلوم .

أما المحَبة فهي حالة ذوقِيَّة ، تفيض على قلوب المُحِبين ، ومالها سوى الذوق فَشَاء ، وكلُّ ماقيل في المحبة ماهو إلاَّ بيانٌ لآثارها ، وتعبير عن ثمارها وتوضيحٌ لأسبابها »[1] .

---

(١) حقائق عن التصوف ، لفضيلة الشيخ عبد القادر عيسى، ص ٣٩٧ .

لذلك لما سُئل الإمام (الجنيد) رحمه الله تعالى عن المحبة؟ كان جوابه : فيضانُ الدموع من عينيه ، وخفقان القلب بالهيام والشوق ، ثم عبَّر عما يجدُه من آثار المحَبة ، فالحب لا يمكن أن يحدَّد ، ولا يستطيع أحد أن يعرِّفه ، أو يشرَحَه ، أو يطلِّعَ على حقائقه وأَسراره ، وكل ما كُتب عن المحَبةِ وقيل ؛ إنما هو أثر من آثارها لا أكثر .

يقول محيي الدين بن العربي قدَّس الله سره :

« من حَدَّ الحبَّ ما عَرَفَه ، ومَن لم يَذُقْه شراباً ما عَرَفه ، ومن قال رُويتُ منه ما عَرَفه ، فالحُب شراب بلا رِيّ » ، لذلك لمّا كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي يقول له : « إني سكرتُ من كثرة ما شربْتُ من كأَس المَحَبة ، فكتب إليه : « هنا رجلٌ ـ يعني نفسه ـ شَرِبَ بِحارَ السمٰوات والأرض وما رُوي بعدُ » . وقيل لرابعة : « كيف رأيت المَحَبة؟ » فأجابت : « ليس للمُحِب وحبيبه بَيْنٌ ، وإنما هو نُطْقٌ عن شوق » ووَصْفٌ عن ذَوْق ، فمن ذاقَ عَرَفَ ، ومن وَصَفَ فما اتَّصف ، وكيف تصِف شيئاً أنت في حضرتِهِ غائبٌ » وبوجوده ذائبٌ ، وفي شُهوده ذائبٌ وبصحوك منه سكران ، وبفراغِك منه مَلآن ، وبسرورك له وَلْهان ، فالهَيْبة

تخْرِس اللسان عند الإخبار ، والحَيْرة توقفُ الجَبان عن الإظهار ، والغَيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ، والدهشةُ تَعْقِل العقول عن الإقرار »[1] .

لقد استطاعت (رابعة) أن تقرِّبَ أَقْدَس معاني الحُب ، وأبهى ملامِحَه ، إلى خيالنا وتصوراتنا ، فقالت : « إنه نُطْقٌ عن شوْقٍ » ، إذاً فما كانت (رابعة) واقفة عند الحد الذي وصلت إليه من المقامات في حبها ؛ بل كانت دائماً في ازدياد ، وهي تعلِّق عن ذلك بنفسها فتقول : « نطْقٌ عن شوق » . إنها في شوق وإزدياد ، إنها في شوق إلى أن تدنوا أكثر من الحضرة الإلهية ، ولا عجب في ذلك . فهي التي اتخذت الحُب الإلهي منْهَجاً لها في الحياة ، حتى سُميت « شهيدة العشق الإلهي » . هي في شوق إلى أن تزداد من شُرْب كؤوس الحُب الإلهي ، والأنوار القدسية ، التي لطالما شعَّت على قلبها الطاهر ، فأينعتْ ثمارُه ، فأخذتْ تزداد نَهْلاً من منابعه ، إنّ كلماتها هذه دليلُ صِدْقِ محبتها ، فهي تقول :

---

(١) رابعة العدوية طه سرور ، ص :١٣٣ .

« وكيف تصِفُ شيئاً وأنت في حضرته غائب ، وبوجوده ذائب؟! » .

فرابعةُ غابَتْ عن كل ماسوى الله في الحضرة الإلهية ، وذابت عن كل شيء إلاَّ عن الله ولو لم تكن كذلك لما قالت ذاك عن الحب .

ورابعة بهذه الكلمات لم تبين حقيقة الحب ولم تعرفه ، إنما أَرادت أن ترينا الآثار نتيجة ذلك المسار فكما أننا لا نرى من البحر الكبير إلاَّ زرقته ، لا نرى ما في داخله من الجواهر واليواقيت والغرائب ، كذلك الحب الذي قصدته (رابعة) ما عرفه إلاَّ من ذاقه ، ومن ذاقه لا يمكن أن يروى منه .

أجل إن (رابعة) سلكت مسلكاً في الحب الإلهي يمكننا أن نقول إنه فريد من نوعه .

إنها سلكت ذاك الطريق وهي والهة ، ورأت تلك العظمة فأصبحت هايبة ، وغرقت في حبها فأَصبحت ساكرة ، وشاهدت الجمال الإلهي فأصبحت حائرة مندهشة!

يقول كاتب المتصوفة القشيري في وصف المحبة : « هي إِحسان مخصوص يلقى الله العبدُ به ، وحاله مخصوصة يرقيه إليها » وأما غاية بلوغ محبة الله من القلب فإنا نراها في قصة

أحد الرجال المتصوفة ، وهو داود الطائي[1] رضي الله عنه : حينما قال : رأيت ولياً من أولياء الله تعالى فقلت له : ما غاية بلوغ محبة الله من قلبك؟ فقال : « لو جعل حساب الخلائق كلهم معي لسرني ذلك ورغبت فيه » فقلت : ولم ذاك؟ قال : ياداود وهل للعبد مقام أشرف من وقوفه بين يدي الله عز وجل ، وهو يشاهده ويخاطبه ، والله العظيم إن ذلك عندي أشرف الدرجات .

أجل ؛ إنهم قوم أفنوا حياتهم بحبه ، وبذلوا كل شيء لنيل قربه ، وذابوا عن كل شيء بذكره ، فللّه درُّهم من أَقوام ، إِذا

---

(١) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائي ، رضي الله عنه ، كان كبير الشأن في الزهد والورع ، مكث رضي الله عنه أربعاً وستين سنة أعزب فقيل له : « كيف صبرت عن النساء ؟» فقال : « قاسيت شهوتهن عند إدراكي ، ثم ذهبت شهوتهن من قلبي » . وكان يقول : « إنما يطلب العلم للعمل به أولاً فأولاً ، وإذا أفنى الطالب عمره في جمعه فمتى يعمل به . وكان لا يسأل الله حياءً منه ، ويقول : « وددت أن أنجو من النار فأصير رماداً!! » . توفي رضي الله عنه سنة اثنين وستين ومائة ، في العام الذي توفي فيه إبراهم بن أدهم .

ماأتى عليهم الليل سمعت لهم أنين الخائف ، ولذيذ المناجاة .

أَجسادُهم تصبر على التعبُّد ، وأقدامُهم ليلَها مقيمةٌ على التهجُّد ، فتراهم كما قال الله تعالى : ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فلو أرادوا أن يناموا ساعة في ليلتهم لا يستطيعون ، لأن الشوْقَ إِلى الله أبعَدَ النومَ عن أَجفانهم ، فلقد هَجَروا الفُرُش ، وهجروا المَنام في الظلام ، وناجَوا ربهم بأحسن الكلام ، فهم مسروررون معه ، ينعَمون بقُرْبه ويشعرون بوجوده ، فهؤلاء هم الذين وَصَفَهم الله بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٦ـ١٨] .

وهم الذين عَبَّر عنهم سيدنا أبويزيد البسطامي بقوله :

« للَّه عبادٌ لو حَجَبَهم عنه طَرْفةَ عَيْن ، ثم أُعطوا الجنةَ ما قَبِلُوها!؟ » .

وأورد فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى في كتابه (حقائق عن التصوف) : « بلغَنا أن الله تبارك وتعالى يتجلى للمُحِبِّين فيقول لهم : « من أنا؟ » فيقولون : « أنت مالِكُ رِقابنا »

فيقول : « أَنتم أحِبَّتي ، أنتم أهل وِلايتي وعِنايتي ، ها وجهي فشاهِدوه ، ها كلامي فاسمعوه ، ها كَأسِي فاشربوه ، ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الدهر : ٢١] .

إِذا شربوا طابوا ، وإِذا طابوا طَرِبوا ، وإِذا طَرِبوا قاموا ، وإِذا قاموا هاموا »[1] .

يقول أبو بكر الكتاني[2] رحمه الله تعالى : « جَرَتْ مسألَةُ في المَحبة بمكة ـ أعزها اللهُ ـ أيامَ الموسم ، فتكلمَ الشيوخُ فيها ، وكان الجنيد[3] أصغرَهم سِناً فقالوا : « هاتِ ماعندك ياعراقي ! ! » فأَطْرَقَ رأسه ، ودَمَعَتْ عيناه ، ثم قال :

عبد ذاهِبٌ عن نفسه ، متَّصِل بذكْرِ ربه ، قائمٌ بأَداء

---

(١) حقائق عن التصوف ، ص ٤١٣ـ٤١٤ .

(٢) هو أبوبكر بن محمد بن علي جعفر الكتاني ، أصلُه من بغداد ، أقام بمكة إِلى أن مات سنة اثنين وعشرين وثلاثمائة رحمه الله تعالى .

(٣) هو أبوالقاسم الجنيدُ بن محمد الزَّجَّاج ، ويلقب (بسَيِّد الطائفة) ، أصلُه من نهاوَند ، وُلد في العراق ، وكان فقيهاً يفتي الناس على مذهب أبي ثور صاحبِ الإِمام الشافعي وراوي مذهَبَه القديم ، مات رحمه الله تعالى ، سَنَةَ سبع وتسعين ومائتين ، وقبرُه ببغداد ظاهِر يزوره الناس .

حقوقه ، ناظرٌ إليه بقَلْبِه ، أحرَقَ قلبَه أنوارُ هيبته ، وصفاءُ شُرْبِهِ من كأس وُدِّه . وانكشف له الجبّار من أستار غَيبه . فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فَعَنِ الله . وإن تحرَّك فبأمر الله ، وإن سَكَنَ فَمَعَ الله ، فهو بالله ولله ومع الله » .

فبكى الشيوخُ وقالوا : « ما على هذا مزيدٌ ، جزاك الله ياتاجَ العارفين »[1] .

ورابعة في طريقها إلى الله ، مَرَّت بكل هذه المَقامات والأحوال الرُّوحيّة ، ثم إنها عَرَجَتْ من ذُرا هذه المقامات إلى المحبة الإلهية ، وانبثق في قلبها نور المعرفة .

ويروي القشيري أنه وَجَدَ مكتوباً بخط الأُستاذ أبو علي الدَّقّاق : « في بعض الكُتُب المُنَزَّلة : « عبدي! أنا ـ وحِقّك ـ لك لك مُحِبٌّ فَبِحَقّي كن لي مُحِباً » .

وسُئل صوفيٌّ عن المحبة؟ فقال : « هي الموافقة » وأنشد :

ولو قلتَ لي مُتْ ، مِتُّ سمْعاً وطاعة

وقلتُ لداعي الموت أَهلاً ومرحباً

---

(١) مدراج السالكين : ٣/ ١١ .

فالمحبة إِذاً لم يستطع أحدٌ أن يحُدَّها ، أو يُعرِّفها ، وكلٍ مانقلناه من أقوال السَّادة العلماء في المَحَبة ما هو إلا بيانٌ لآثارها ، وتوضيحٌ لأسبابها ، لقد عَلمتْ (رابعةُ) الناس معنى الحُب الإِلهي ، وأَعْطَتْهم في ذلك درساً لايمكنهم أن ينسَوْه على مرِّ الزمن ، وبهذا تكون قد نَهَجَت نهج المصطفى ﷺ في تعليم أصحابه المَحَبة ، لِمَا لها من الأَثر العظيم ، والمَقام الرفيع ، فقد بيَّن لهم أن حُبهم للّه يقتضي حُبهم لرسوله ﷺ ، وأن محبةَ الرسول ﷺ ، مُوصِلة إِلى محبة الله تعالى ، يقول عليه الصلاة والسلام :

« أحبّوا الله لما يَغْذُوكم من نعمه وأحبُّوني بحُب الله » .

وإِذا ما سَكَنَ الحُب قلْباً ، فإِنه يُخْرِج منه حُبَّ الدنيا وشهواتِها ، وأَهوائِها ، ويجعل صاحبه يعيش حياةً تسودُها السعادُة والاطْمئنان ، بعيداً عن الهَمّ والكَرْب .

وقد روى المناوي في الطبقات ، أَن سفيان الثوري قال لرابعة : « ما حقيقةُ إِيمانكِ؟ » . قالتْ : ما عبدتُهُ خوفاً من ناره ، ولا حُباً لجنته ، فأَكون كالأَجير السوء! بل عبدته حُباً وشوقاً إِليه » .

حقاً ؛ إِن هذا لهو الحُب في أَعلى مقاماته ، وأرقى صِفاته وأسمائه . وتعالَوا بنا نستمع إِلى هذه الكلمات العذبة ، التي عَبَّرت بها السيدة (رابعة) عن نفسها ومقصودِها من العبادة حين أنشدت :

كلهــم يعبــدون مِــن خــوفٍ ونــارِ
ويَــرَوْنَ النجــاةَ حَظــاً جــزيــلاً
أَوَلِكــي يسكنــوا الجِنَــانَ فيَحْظَــوا
بكُــؤوس ويشــربــوا السَّلْسبيــلا
أو يُقيمــوا بيــنَ القصــورِ جميعــاً
أنــا لا أبتغــي بِحُبــي بــديــلاً

وبعد ، « فإِن كل كلمة تُكْتَب عن الحُب الإلهي ، وكلَّ لَحْن يَنطق بالنجوى ويهتِف بالوَجْد ، هو زهرةٌ يُهدى لرابعة أريجها ، وعطرٌ يفوحُ حول اسمها ، فاسم (رابعة) اقْتَرَن بكلمة المَحَبة » حتى أصبح مرادِفاً لها ، ومُمْتزِجاً بها ، وسارياً في التاريخ مع ذِكْرِها ، لقد مسَّها خلودُ الحُب فأصبح اسمُها لَحْناً من ألحانه » ومَواجيدَه وتَرْنيماتِه ، تُذْكَر بِذِكْرِه ، ويُذْكَر بِذِكْرِها ، وتُؤرَّخُ به ، ويُؤرَّخ بها ، إِنها لرائدتُه وصاحبةُ شِرْعَته » ومفجِّرَةُ ينابيعه في القلوب ، ومُطْلِقة

ألحانه في الوجود ، وإِنها لصاحبة لِوائِه يومَ ترفَعُ الألوية في ساعات الحساب أو ساحات الخلود »[1] .

* * *

(١) رابعة العدوية » لطه سرور : ص١٧٣ .

الفناء عند رابعة

الفناء عند رابعة

أَفنت (رابعة) حياتها في حب الله تعالى ، وكانت صادقة ومخلصة في ذلك ، فلم يشغَلْها في الوجود سوى الله ، فتَراها دائماً ذاهلةً ، مُحِبةً ، تغوصُ في بحرٍ من الأشواق والوَجْد .

فرابعةُ كما يقول الأُستاذ سرور : « جعلتْ من الحب فناءً ، ومن الفناء مَحَبةً ، وبذلك تكيّف موقفُها من الدنيا ، وموقفُها من الآخرة ، ولقد مَزَجَتْ مقامَيْ الحُب والفَناء ببعضهما مَزْجاً واضحَ اللحْن في كليهما ، لأنها عدَّتهما من أُفقٍ واحد ونبعٍ مشترك »[1] .

يقـول الهجـوري فـي كشـف المحجـوب : « والمـرادُ

(١) رابعة العدوية ، طه سرور ص ١٤٨ .

بالفناء « فناءُ إرادة العبد في إرادة الله . لا فناءُ وجودِ العبد في وجود الله » .

روى العطار في التذكِرة :

« إن رابعة كانت تَنُوحُ باستمرار ، فَسُئلت : « لماذا تنوحين وما ثَمَّة أَلَمٌ عساكِ تشكيْنَ منه؟ » فأجابت : « واحسرتاه! العلةُ التي أشكوها ليست مما يستطيع الطبيبُ علاجَه ، وما يُغني على احتمال هذه العلة إلا رجائي أن أُحقِّقَ غايتي هاتيك في العالَم الآخر ؛ أن أرى وجهَهُ الكريم » .

نعم ، إنها فَنِيَتْ بربِّها غايةَ الفناء ، واحترق قلبُها شوقاً إليه ، وها هي تعيش على الأمل الكبير الذي ترجوه في النهاية ، وهو أن ترى ربها سبحانه وتعالى :

وما مقصودُهم جناتُ عدْنٍ
ولا الحُورُ الحِسَان ولا الخيام
سوى نَظَرِ الجليل ، وذا مُناهم
وهذا مقصِد القوم الكرام

لذلك لما سأل سفيانُ الثوري (رابعةَ) عن حقيقة إيمانها ، قالت له : « ما عبدْتُه خوفاً من ناره ، ولا حُباً في جنته ، فأكون كالأجير السوء! بل عبدْتُه حُباً وشوقاً إليه » .

فإن عبد الناسُ ربَّهم سبحانه وتعالى خوفاً من ناره ، أو رغبة في جنته فقد عبدَتْه (رابعة) عبادةً أسمى ، عبادة ليس فيها هوى النفس أو رهبة الحِسِّ ، وهذه عبادة التُّجار ، ولكنها عبدَتْه جلّ في عُلاه لذاته ، لأنه إلهٌ يستحق العبادة والتقديس ، فهو سبحانه قيوم السموات والأرض ، الجديرُ بالعبادة والشكر .

وتعالوا بنا نستمع إلى الحوار الصوفي الرائع الذي جرى بين صاحبة المقام الرفيع وبين مالك بن دينار ، وسفيان الثوري ، وشقيق البَلْخي[1] رضي الله عنهم أجمعين ، حينما كانوا في زيارة لها ، فسألَتْهم عن معنى الصدق :

فقال سفيان : « ليس بصادقة دعواه مَن لم يصبر على ضَرْب مولاه » . فقالت رابعةُ : « هذا غُرور »! وقال شقيق :

---

(١) هو أبو علي شقيقُ بن إبراهيم البَلْخي ، رضي الله عنه من مشايخ خُراسان ، من أقواله : « إذا كان العالِم طمَّاعاً ، وللمال جامعاً ، فبمن يقتدي الجاهل؟ وإذا كان الراعي هو الذئب ، فمن يرعى الغنم؟ » وكان يقول : « اتق الأغنياء ، فإنك متى عَقَدتَ قلبَك معهم ، وطمَعَك فيهم ؛ فقد اتخذْتَهم أَرباباً من دون الله!! » .

« ليس بصادقة دعواه مَن لم يَشكرْ على ضَرْب مولاه » .
فقالت : « هنالك ماهو خير من هذا » .

فقال مالك : « ليس بصادقة دعواه مَن لم يتلذَّذ بِضَرْب مولاه » .

فصاحت رابعة : « بل ثَمَّة أفضل من هذا كله »!

فقالوا لها : « تكلمي أنت إذاً » .

فقالت : « ليس بصادقة دعواه مَن لم يَنْسَ الضَّرْب في مشاهَدَة مولاه ، مِثْلَ نِسْوَةِ مصر ، اللاَّتي نَسَيْنَ آلامَ أيديهن لما رأينَ يوسف » .

أجل هذا هو الفناء الكامل في الله تعالى ، أن تنسى كل شيء من عالَم المادة والحِسِّ ، وأن توجه قلبَك إلى الله وحدَه ، فلا يشغَلَك عنه أيُّ شاغلٍ يحولُ بينك وبينه سبحانه وتعالى .

يقول العلامة المحقِق إمام المتأخرين في العلوم الحُكْمية والنقْلية السَّعْدُ التفتازاني : « إن السالك إذا انتهى سلوكُه إلى الله تعالى أي وفَّي بلوغَ رضاه ، وما يؤمّلُه من حضرته العلية ، يستغرقُ في بِحار التوحيد والعِرفان » بحيث تضمحِل

ـ أي باعتبار الشهود لا الحقيقة ـ ذاتُه في ذاته ، وصفاتُه في صفاته ، ويغيبُ عن كل ما سواه ، ولا يرى في الوجود إلاَّ الله تعالى .

قال : وهذا هو الذي يسمّونه (الفناء في التوحيد) وإليه يشير الحديث الإلهي : « لايزال عبدي يتقرّبَ إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصِر به ، ويدَه التي يبطِش بها »[1] الحديث .

وعلى هذا المنوال سار موكب أهل الحقائق والإيمان إلى الله تعالى ، وفي مثل هذه الأحوال أَفنى الصوفيةُ أَعمارَهم ، بالاستغراق الكامل في الله جلّ وعلا ، وبالغيبوبةِ والفناءِ المطلَقِ عاشوا الحياةَ السعيدةَ الوارِفةَ بالأنوار الإلهية ، والمشاهداتِ الجَلاليّة ، والألطافِ الربانيّة الخَفِيّةِ ، وإن القلم لَيَتَعَسَّرُ عليه أن يكتب ، واللِّسانَ أن ينطقَ في وصْف هذا الخِطاب الإلهي الجمانيّ الجلاليّ ، الذي تغيب عند سماعِه العقولُ ، وتحيا عند مشاهدتِه القلوبُ ، وتسمو عند ملاحظتِه

(١) انظر كتاب مجموع فتاوى ورسائل الإمام السيد علوي المالكي الحسني ، ص ٨٩ .

الأرواحُ . وحَسْبُنا في هذا المقام أن نذكُر قصة سيدنا الجنيد قَدس الله سره ، حينما جاءَتْه امرأةٌ ومعها زوجُها ، فوقفتْ بباب المسجد ، وسألت الوقوفَ بين يدي الجنيد لتسأله عن مسألة ، فلما عَلِم بذلك خرج إليها ، فقالت : ياسيدي : إن زوجي هذا يريدُ أن يتزوَّج عليَّ » . فقال الجنيد إن لم يكن له أربعُ زوجات يجوز له أن يتزوَّجَ عليكِ » . فقالت : « ياسيدي : لو كان يجوز النظرُ إلى الأجانب لكشفتُ لك وجهي لتنظر إلى حُسْني وجمالي ، فتعْلمَ أن مَن كان عنده مثلي لا ينبغي له أن يتزوَّج عليها ، فلما سمع الجنيدُ هذا الكلام صاح وخَرَّ مَغْشِياً عليه ، فلما أفاق ، سُئل عن ذلك ، فقال : « نظرتُ كأن الجَبار جلَّ جلالُه يقول : « لو كان يجوز لأحَد أَن يراني في الدنيا بعين بَصَره ، لكشفتُ له عن حِجابي حتى يراني ، ليعلَم أن من كان له رَبٌّ مِثْلي لاينبغي له أن يَحِلَّ في قلبه سواي » .

وبكلمة الحُب والفناء استطاعتْ (رابعةُ) أن تفتح فَتْحاً جديداً في تاريخ الحياة الرُّوحية الإسلامية ، فهاهي تناجي ربَّها ـ كما يروي لنا العطار ـ فتقول : « إلهي ! إن كنتُ عبدْتُك من خوف النار فأحْرقني في النار ، أو طمَعاً في الجنة فحرِّمْها

عليَّ ، وإن كنتُ لا أعبدُك إلا من أجلِك فلا تحرِمْني مشاهدةَ وجهك » . وكانت تقول :

« مُحِـبُّ الله لا يسكـنُ أنينُـه وحنينُـه حتـى يسكـن مـع محبوبه » .

فإلى هذا المقام وصلتْ السيدةُ (رابعةُ) ، فهي لم تعبد الله طمعاً في أن يُدخلها الجنة ، ولم تعبدُه خوفاً من أن يُدخلها النار ، إن مقامَها أرفعُ من ذلك ، ولِمَ لا؟ والحبُّ هو مقامُها! .

فهي لم تعبُد اللهَ إلا من أجْلِ أن تحظى في النهاية برُؤية محبوبِها ، ألا وهو خالِق هذه الأُمة وبارئها .

وكثيراً ماكانتْ تقول في مناجاتِها أيضاً :

« إلهي! كل ما قدَّرته لي من خير في هذه الدنيا ، أعْطِه لأعدائك ، وكل ما قدَّرته في الجنة ، أمنَحْه لأصدقائك ، لأني لا أسعى إلا إليك أنت وحدَك » .

فأيُّ فناء هذا؟ وأيُّ حُب هذا؟ وأيُّ شوق هذا الذي وصلَتْه رابعةُ؟ ومن أجدَرُ منها للوصول إلى هذا المقام؟! لا شك إنه غاية الفناء في المَحْبوب ، الفناءُ عن كل مافي الدنيا من أهواء

وشهوات ، وحظوظ نفسية ، كل ذلك من أجل أن تحظى بِمَرْضاة الله سبحانه وتعالى .

تقول رضي الله عنها : « إن الله حجب عقول الخَلْق بحُجُب لطيفة ، فحَجَب عنه العلماءَ بالعلوم ، والزهّادَ بالعمل ، والحُكَماء بلطائف الحكمة ؛ أما العارفون فأسكنَ قلوبَهم من نور مَحَبته ، فلم يحْجِبْه بشيء » .

لذلك كان أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول : « أشد المحجوبين عن الله ثلاثة : الزاهدُ بزهده ، والعابدُ بعبادته ، والعالِمُ بعلِمْه .

مسكينٌ الزاهد ، لو أن الدنيا كلها سماها الله ما زهد فيها ، مسكينٌ العالِم ، لو عَلِم أن جميع ماأوتيه من العلم بعض سطر واحد من اللوح المحفوظ ، ما نَظَر لِعلْمه » .

فرابعةُ في سيرها هذا ـ كما ذكرتْ ـ نَهَجَتْ طريق التصوف الذي هو جوهر الإسلام وروحه النابضة ، إنه تصعيد بالحياة إلى أعلى .

والصوفي مُحِب لله لاينشغل عنه بسواه ، تراه قد أَلقى بقلبه وحِسّه وكلٍّ حياته المادية والحسية عند خالقه سبحانه ، فلا يخاف ولا يقدِّس ولا يخشى إلاَّ الله .

« وهو لهذا يُجرِّد كل شيء من قوّته وبَأسه » كما يجرده من جَلاله وبهائه » فهو لا يخشى جباراً لجبروته » ولا قوياً لقوّته ، ولا عنصراً من عناصر الكون لِشموخه وسُمُوقِه ، حتى الأماكن المقدسة والشعائر المفروضة ، لا يراها الصوفي بذاتها شيئاً ذا جلال أَو قُدسية » لأن الجلال لله » والقَدَاسة للمهيمن المتعالي .

فالصوفي مَن أَحَب اللهَ ، فمحا من قلبه ومِن عقله ماسواه . ورأى كمال التوحيد كمالاً ، والحُبُّ أنْ يَرُدَّ كلَّ ظواهر الوجود إلى مُبدِع الوجود ، وأن يُعرِض عما في الوجود ، ليرى ربَّ الوجود »[1] .

ومن هنا يظهر لنا بوضوح أهمية التَّصوف ، وأنه روح الإسلام وقلبُه النابض ، ومع ذلك كله فقد تعرَّضَ التصوف الإسلامي إلى هجوم عنيف ، فلقد أراد خصومه أن يُشَوِّهوا مَعالِم التصوف » وأن يَصِفوه بالضعف ، وبالزهد ، والانعزال ، وأنه يأتي بأشياء خيالية وخُرافية ، وأن المتصوفة يهربون من واقع الحياة ونضالها!

---

(١) رابعة العدوية لطه سرور » ص ١٧٥ .

لقد شُبه لأعداء التصوّف ، أن التجريد عند الصوفية هو مُروقٌ من الدين ، وإِلحادٌ في آيات الله . وقد تركز جُل هجومهم على تجريد المتصوفة للكعبة والحج تجريداً حسياً ، فاشتعل الحقدُ في نفوسهم ، وأخذوا يَطْعَنون بالتصوف عن طريق أقلامهم ، بأنه كفر وبأنه مروق من الدين!!

ولقد حُكم بالإعدام على الحلاج[1] من أجل هذا التجريد ، فقد كان يقول : « إِن شوقنا إِلى الله يجب أن يمحوَ عقلياً في نفوسنا صورةَ الكعبة ، كيما نجد من أقامها! » .

والإنسان الفَطِن المتمعّن في هذه الكلمات ، لا يجد فيها ما يُسيء إِلى الكعبة أو يمسُّها بسوء ، فإن الحاج عندما يذهب إِلى الحج ؛ لا يذهب من أجل بناء مُقامٍ ، وإِنما يذهب إِلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاّج رضي الله عنه وهو من أهل بيضاء فارس . نشأ في العراق وقُتِل ببغداد بباب الطَّلْق ، يوم الثلاثاء لِستٌ بَقَيْنَ من ذي القَعدة سَنَة تسع وثلاثمائة رحمه الله تعالى .

وقد قال أبو العباس المُرْسي[1] رحمه الله تعالى لرجل يريد الحج :

« إذا وصلتَ إلى البيت ، فلا يكن همُّك البيت ، ولْيكنْ همُّك رب البيت ، لا تكن ممن يعبدون الأوثان والأصنام » .

ويعلق الأُستاذ طه سرور على كلمة أبي العباس قائلاً :

« قد تبدو تلك الكلمة من الإمام أبي العباس جامحة قاسية! ولكنها نَظرة إلى التوحيد الذي علَّمنا اللهُ ، أليس في انصراف العبد عن مولاه في يوم الحج الأكبر ـ بتعظيمه للكعبة وفنائه في مشاهدتها وذهوله عن موجدها ـ ما يتنافى مع نقاء الإيمان وصفاء التوحيد؟! أَوَليس مِن هذا غَرِقَ العالم الإسلامي في الحُجُب التي حالتْ بينه وبين الله سبحانه وتعالى؟ حُجُبِ الرجال » أو حُجُبِ المقامات والمَشاهِد .

ويتبين لنا هذا أَيضاً في جواب الجُنيد حينما سُئل : « متى يُكمِّل المُحب أَحوالَ العبودية؟ » فقال : « إذا رأى أن الأشياء كلها لله تعالى ، وأنه هو المنفرد بالتدبير والخَلْق والمُلْك »

(١) هو الإمام أبو العباس المُرْسي ، كان من أكابر العارفين بالله ، مات رضي الله عنه سنة ست وثمانين وستمائة .

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨٣] .

ورابعةُ أول من جرَّد الصُّوَر والأشكال من معانيها الحسية ، ولذلك فهي عندما كانت تحجُّ ، لم تكن تقصدُ البيت ؛ بل كانت تقصُدُ الهَدَفَ الأسمى الأعلى ، وهو الله رب البيت ، وهذه الغايةُ العليا ـ وهي قصد الله في كل أعمالها ـ كانت مَنْهَجَ رابعةَ في حياتها وسلوكِها ، فكلُّ عَمَلٍ من أعمالها ، يَنُمُّ عن عظيم مقصِدها وأهدافها .

صحيحٌ أن رابعةَ أكثرتْ من الحج على مدى أربعين عاماً ، ولكنها كانت تحجّ بِقَلْبها إلى ربها دائماً ، فالله ليس له جهة حتى يُحَجَّ إليه ، وإنما :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ٧٩] فالوجهُ هنا : المرادُ به القَلْبُ ، لأنه لو لم يكن كذلك ، لكان المعنى غير سليم ، إذ إن الله لا تَحُدُّه جهةٌ ، ولهذا لما سُئل سيدنا عليٌّ كَرَّم الله وجهه : « متى كان الله؟ » قال : ومتى لم يكن؟! فقيل : « فهل رأيتَ ربَّك ياإمام؟ » قال : « وكيف أعبد مالا أرى؟! » فقالوا : « فكيف رأيتَ ربك؟ » قال : « إن كانت العيونُ لا تراه بمشاهَدَة العَيان ، فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان » .

ونستطيع أن نقول إن هذا التغيُّرَ الذي شهدَتْه حياةُ رابعة من صَرْف النظر إلى الغايات والأهداف أكثرَ من الوسائل والصُّوَر ؛ جعلَها تدعو المؤمنين إلى أن يَرَوا رب الكعبة ، وذلك برؤية نوره وجماله ، قبل أن يَرَوا الكعبة ذاتَها ، فكأن لسان حالها يقول : « إذا زار الإنسان بيتاً ولم ير صاحب البيت ، فماذا يستفيد؟ » .

* * *

كرامات رابعة

كرامات رابعة

بعد أن أمضينا وقتاً ممتعاً مع تلك النَّفَحات النورانية من حياة رابعة ، وذلك من خلال وَرَعِها وتُقاها ، وزُهْدها وذِكْرها ومناجاتها ، ونحن مازلنا نستنشق عبير الإيمان الخالص ، والمَحَبة الصَّادِقِة ، في حياة هذه السيدة الجليلة .

تعالَوا بنا نَرَ حصيلة تقاها ووَرَعها ، من أمور خارقة للعادة ، وكرامات أَجْراها اللهُ على يَدِها ـ بفضْله سبحانه ـ إكراماً لها ، لِصِدْقها في مَحَبته ، ولكنْ نَظَراً لوجود تيارات التشكيك والتضليل ، وكَثْرتها في هذا الوقت ، والتي أثَّرت في كثير من عقول شبابنا اليوم ، وحملَتْهم على الوقوف من الكرامات موقفَ المنكِر الجاحد ، لذلك لا بدَّ لي قبل أن أتعرَّض إلى ذكر كرامات السيدة (رابعة) ، من أن أُقدِّم الدليل

القاطع والبرهان السّاطع ، على إِثبات الكرامة ، معتمداً بذلك على القرآن ، والسُنَّة ، وآثار الصحابة رضوان الله عليهم ، فلقد ثبتتْ كرامات الأولياء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأقرَّ ذلك جمهورُ العلماء من أهل السُّنة والجماعة .

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى[١] :

« اعلمْ أن مذهب أهل الحق ، إثبات كرامات الأولياء ، وأنها واقعةٌ موجودةٌ مستمرةٌ في الأعصار ، ويدل عليه دلائل العقول وصرائح النقول ؛ أما دلائل العقل : فهي أمْرٌ يمكِن حدوثه ، ولايؤدي وقوعُه إلى رَفْع أَصْلٍ من أُصول الدين ، فيجب وَصْفُ الله تعالى بالقُدْرة عليه ، وما كان مقدوراً ؛ كان جائز الوقوع .

وأما المنقول : فآياتٌ في القرآن العظيم ، وأحاديثٌ مستفِيضة . فمن الآيات الكريمة قوله تعالى :

﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيّٗا ﴾ [مريم : ٢٥] .

يقول الإمام أبو المعالي رحمه الله تعالى إمامُ الحَرَمين :

---

(١) بستان العارفين للإمام النووي : ص ١٥٢ .

« ولم تكن مريم بنبيّة بإجماع العلماء » .

كذلك قصةَ صاحبِ سليمان (آصفَ بنَ برخيا) في قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] ، فأتى بعرش بلقيس المُحَصَّن بالحَرَس ، المحوَّط بالأسوار ، من اليمن إلى فلسطين ، ووضعَه أمامَ سيدنا سليمان قبل ارتداد الطَّرْف .

وأما الدليل من الأحاديث الشريفه فهي كثيرة أيضاً ، منها :

حديث أنس رضي الله عنه ، أن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، خَرَجا من عند النبي ﷺ في ليلة مُظْلِمة ، ومعهما مثل المصباحَين يضيئآن بين أَيديهما ، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحدٌ حتى أَتى أَهلَه »[1] . كذلك قصةُ الثلاثة الذين دخلوا الغارَ ، وانفراجُ الصَّخرة عنهم ، بعد أن سَدَّت عليهم الباب ، فأخذ يدعو كلُّ واحدٍ منهم بدعوةٍ ، حتى انفرجتْ عنهم الصخرة ، وهو حديث طويل « متفق عليه » .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، في كتاب الصلاة .

أيضاً حديث أَبي هريرة رضي الله عنه في قصة (جريج العابد) ، الذي كلَّمه الطفلُ في المَهْد ، فقال للصبي الرَّضيع « من أَبوكِ؟ » فقال : « فلان الراعي » ، وهو حديث صحيح مُخَرَّجٌ في الصحيحين .

وقد نُقل عن الصَّحابة رضي الله عنهم من الكرامات الشيءَ الكثير . من ذلك قصة سيدنا أبي بكر رضي الله عنه مع أضيافه في تكثير الطعام ، حتى صار الطعام بعد الأكل أكثرَ مما كان ، وهو حديث صحيح في البخاري .

فالسيدة (رابعة) كان لها قدوةٌ ونِبْراسٌ في الكرامة من السلف الصالح ، الذين زَهِدوا في الدنيا ونواميسها وقوانينها ، فجائتهم طائعةً ذليلةً . فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بندائه : « ياسارية! الجبلَ الجبلَ » يغيِّر أنظمةَ ودساتير وقوانين علم الصوت والفيزياء ، واختراعُ اللاسلكي ، يُقرِّب هذه المعجزة من عقول الناس ويجعلها مقبولة عندهم ، والعلم في تقدُّم مستمر! وكثيرٌ هم الصحابة الذين زَهِدوا في الدنيا وأقبلوا على الله فجاءتْهم الدنيا ذليلةً حقيرة ، فمنهم من كان أُصْبُعُه يضيء في الظلام ، ومنهم مَن كانت عصاه تضيء ، ومنهم مَن انفجر الماءُ من بين أَصابعه .

ولِمَ لا؟ وقد تحققوا بمرتبة عالية من الدين :

« أن تعبد الله كأنَك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

« وما يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَه ، فإذا أحببته كنتُ سَمْعَه الذي يسمع به ، وبَصَرَه الذي يبصِر به ، ويده التي يبطِش بها ، ورجْله التي يمشي عليها ، وإن سألَني لأعطينّه ، وإن استعاذني لأُعيذنه[1] .

وأما الحكمة من إجراء الكرامات على يد الأولياء ، فقد كتب فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى في كتابه حقائق عن التصَّوف عن ذلك قائلاً :

« اقتضتْ حكمةُ الله تعالى أن يكرِّم أحبابَه وأولياءَه ، بأَنواع من خوارق العادات تكريماً لهم على إيمانهم وإخلاصهم ، وتأييداً لهم في جهادهم ونُصْرتهم لدين الله ، وإظهاراً لقدرة الله تعالى ، لِيزداد الذين آمنوا إيماناً ، وبياناً للناس أن القوانينَ الطبيعيّة ، والنواميسَ الكونيّة ، إنما هي من صُنْع الله وتقديره ، وأَن الأسباب لا تؤثِّر بذاتها ، بل الله تعالى

---

(١) رواه البخاري في الأحاديث القدسيّة .

يخلِقُ النتائج عند الأسباب لا بها ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة »[1] .

يقول القُشَيْرِي رحمه الله تعالى : « واعلم أن من أَجَلِّ الكرامات التي تكون للأولياء ، دوامُ التوفيق للطاعات ، والحفظُ من المعاصي والمخالَفات »[2] .

ويقول ابن تيمية : « ما صح أن يكون معجزةً لِنَبيٍّ ، صَحَّ أن يكون كرامةً لِوليّ » .

وليست الكرامة عند الصوفية هي ذِرْوة المقامات ، وإنما يُختصُّ بها بعضُهم لِمَزِيّةٍ لا تقتضي الأفضليّة ، أو للاختبار والامتحان .

يقول الجنيدُ رحمه الله :

«مشى رجالٌ على الماء ، ومات بالعطش أفضلُ منهم!» .

ويقول علي الخوّاص رحمه الله تعالى[3] :

---

(١) حقائق عن التصوف ، لفضيلة الشّيخ عبد القادر عيسى ص ٤٦٠-٤٦١ .

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٦٠ .

(٣) هو علي الخواص البرلسي ، كان أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب ، وكان رضي الله عنه يتكلم عن معاني القرآن الكريم والسُّنَّة =

« الكُمَّل يخافون من وقوع الكرامات على أيديهم ، ويزدادون بها وَجَلاً وخوفاً ، لاحتمال أن تكون استدراجاً »[1] .

فَعَيْن الكرامة عندهم ، هي الاستقامةُ على شَرْع الله ، وصَوْنِ حدودِه . وبعد أن بَيَّنا بشيء من الإيجاز دليل الكرامة من الكتاب والسُّنة ، يجدر بنا أن نعود إلى السيدة (رابعة) لنعيش مع بعض كراماتها ، علّها أن تكون لنا عِظَةً وعِبْرة .

يقول العطار : « ارتحلَتْ (رابعةُ) ذات يوم إلى الكعبة ومعها حمار يحمِل متاعَها ، فَنَفَقَ الحمارُ في الطريق ، فقال أصحابُ القافلة : « سنحمل متاعَكِ على دوابنا » ، فقالت : ما كان اتكالي عليكم لما ارتحلتُ ؛ بل ثقتي بالله تعالى ، فارحَلوا إذن وحدَكم » ، فلما ارتحلتِ القافلةُ دَعَتْ رابعةُ الله تعالى وهي تقول :

« إلهي! هكذا يفعل الملوكُ بعبيدِهِمُ الضِّعاف العاجزين؟! لقد دعوتَني إلى زيارة بيتِك ، وها أنتَ ذا تَدَعُ حماري ينفُقُ في الطريق ، وتدعُني في الفيافي وحيدَةَ »! ، قال العطار :

= الشريفة كلاماً نفيساً تَحارُ له العقول .

(١) اليواقيت والجواهر لسيدي عبد الوهاب الشعراني ص : ١١٣ .

« فما أتمتْ هذه الكلماتَ حتى نهض الحمارُ مليئاً بالحياة » فوضعتْ عليه متاعَها واستمرت في طريقها ولحقَتْ بالقافلة » .

والحقيقةُ أنه ليس في ذلك عَجَبٌ ، فقد مَنَحَها اللهُ ماهو أَعظم من ذلك بكثير ، ألا وهي الاستقامةُ على شَرْعه سبحانه وتعالى » وإنما جاءت تلك الكرامة موافِقَةَ عِلْم البرهان ، ورايةَ الحق على صِدْقِ (رابعة) في حُبها وعبادَتِها ، ولذلك فإن الله تعالى استجابَ دعاءها حين إتمامه . لقد عَلمتْ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي دعاها لزيارته » والداعي يُيَسِّر ويُسَهِّلُ أُمورَ مَن يدعو ، من هنا انطلقَتْ (رابعةُ) واثقةً في ربها سبحانه ، مفوِّضة الأمرَ إليه في قضائه وقَدَره ، جالسةً على بساط الرضا ، متوسِّدةً بالصَّبر ، لابسةً لِباس التقوى والوَرَع والزُّهْد ، من هذه الصفات جاء إكرامُ الله سبحانه لها بهذه الكرامات وتلك المقامات العليّةِ ، والأنوارِ القُدُسيةِ ، وحُبِّ الذات الإلهية .

وجاء في تذكرة الأولياء : « إن رابعة كانت في طريقها إلى الكعبة ذات يوم وحيدةً في الصحراء » فشعرت بالوَحْشة فصاحت :

« إلهي إن قلبي ليضْطَربُ في هذه الوَحدة ، أنا لَبِنَةٌ ، والكعبةُ حَجَرٌ ، وما أُريده هو أن أشاهدَ وجهَك الكريم » فناداها صوتٌ من عند الله تعالى : « يا رابعةُ! أتطلبينَ ـ وحدَكِ ـ مايقتضي هَدْمَ الدُّنيا بأَسرها » إن موسى حين رامَ أن يُشاهِد وجهَنا ، لم نُلْقِ إلاَّ ذَرَّة من نورِنا على جبلٍ ، فَخَرَّ صَعِقاً » .

يقول المناوي : « ومن كرامتها أن لصاً دَخَل حُجْرَتها وهي نائمة ، فحمَل الثيابَ ، وطلبَ البابَ فلم يجدْهُ ، فوضَعَها فوجدَه ، فحملها فخَفِيَ عليه ، فأَعاد ذلك مِراراً كثيرة ، ثم هتف به هاتف :

« دع الثياب! فإنا نخفظُها ولا ندعُها لكَ وإن كانت نائمةً » .

ولا يتحقق هذا الحِفْظ ، إلا بعد حفْظِ أوامرِ الله جميعِها » والاستقامةِ على شَرْعه ، والسَّيْر على نهجِه وهُداه ، كما ورد في الحديث :

« احفظ الله يحفظك » .

ودخـل لـصٌ بيتهـا فلـم يجـد غيـرَ إبـريـق ، فلمـا هَـمَّ

بالخروج ، قالتْ له رابعةُ : « ياهذا! إِن كنتَ من الشُّطَّار فلا تخرجْ بغير شيء »! فقال : « إِني لم آخذ شيئاً » .

فقالت : « يا مسكين! توضأ بهذا الإبريق ، وادخل في هذا المَخْدَع ، وصَلِّ ركعتين ، فإِنَّك ما تخرجُ إِلا بشيء » ، ففعل ما أَمَرَتْه به ، فلما قام يصلي ، رفعت طَرْفها إِلى السماء وقالت :

« سيدي ومولاي! هذا قد أَتى بابي ولم يجد شيئاً عندي ، وقد أوقَفْتُه ببابك ، فلا تحرِمْه من فضلِك وثوابك » .

فلما فَرَغَ من صلاة الركعتين ، لَذَّتْ له العبادة! فما بَرِحَ يُصلي إِلى آخر الليل ، فلما كان وقت السَّحر دخلَتْ عليه (رابعةُ) فوجدتْهُ ساجداً وهو يقول في سجوده معاتِباً نفسه :

إِذا مـــا قـــال لـــي ربِّـــي
أمـــا استحيَيْـــتَ تعصينـــي
وتخفـــي الـــذَّنـــبَ مِـــن خَلْقـــي
وبعصيـــانِ تـــأتينـــي
فمـــا قـــولـــي لـــه لمّـــا
يعـــاتبنـــي ويُقْصينـــي

فقالت له : « كيف ليلتُك؟ » فقال : « بخير ، وقفتُ بين يدي مولاي ، بِذُلِّي وافتقاري ، فقَبِل عُذْرِي ، وجَبَرَ كَسْرِي ، وغَفَرَ لي ذنبي ، وبلَّغني المطلوب » ، ثم خرج هائماً على وجهه ، فرفعتْ (رابعةُ) كَفَّها إلى السماء وقالت :

« سيدي ومولاي هذا وقف ببابِكَ ليلةً فقَبلته ، وأنا ـ مُذْ عرفتُك ـ بينَ يديكَ ، أتُرَاكَ تقبلُني؟ » فنودِيتْ في سِرِّها ، « يا رابعةُ! . . مِن أجلكِ قَبِلْناهُ وبِسَبَبِك قَرَّبْناه! » .

فقَبولُ هذا العاصي يذكِّرنا بِقَول العارف الكبير الفُضَيل بن عياض رضي الله عنه فيما رواه عنه أبو نُعيم أنه قال : « ما من ليلة اختلَط ظلامُها ، وأرخى الليلُ سِرْبال سِتْرها ؛ إلا نادى الجليلُ جلّ جلالُه : من أعْظمُ مني جُوْداً والخلائقُ لي عاصون ، وأنا لهم مراقِبٌ أكلَؤُهم ـ أحفظُهم ـ في مضاجِعِهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولَّى حِفْظَهم كأنهم لم يُذْنِبوا فيما بيني وبينهم ، أجُودُ بالفضل على العاصي ، وأتفضّل على المسيء مَن ذا الذي دعاني منهم فلم أستجبْ له؟ ، أم مَن ذا الذي سألَني فلم أُعْطِه؟؟ » أم مَن ذا الذي أناخ ببابي فنحَّيتُهُ . أنا المتفضِّل ومنِّي الكَرَمُ ، ومِن كَرَمِي أني أغفر للعاصين بعد المعاصي » ومن كَرَمي أن أعطي العبدَ ماسألني وأعطيه مالم

يسألني ، ومِنْ كَرَمي أني أعطي التائب كأنه لم يعصِني . فأين إلى غيري يهرُبُ الخلائقُ؟ وأين إِلى غيرِ بابي يلتجىء العاصون[1] .

ورُوِيَ أن بعضَهم كان يدعو لرابعة ، فرآها في النوم تقول له :

« هداياك تأتيني على أَطباق من نور ، مخمَّرَةً بمناديل من نور » .

وروى المناوي : « إنها زرعَتْ زَرْعاً ، فوقع عليه الجرادُ ، فقالتْ « إلهي! رِزْقي تكفَّلْتَ به ، فإن شِئْتَ فأطعِمْه أعدائك أَو أولياءَك ؛ فَطارَ الجرادُ كأن لم يكن » ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] لذلك يقول حَاتَم الأصمّ : « الواثقُ من رِزْقِه مَن لا يفرح بالغنى ، ولا يهتمُّ بالفقر ، ولا يبالي أصبحَ في عُسْر أو يُسْر » .

هذا غيْض من فيْض ، وقليلٌ من كثير ، مما وَرد من كراماتها رضي الله عنها ، وحُسْن سِيْرتها ، فَلَقَد أفْنَتْ حياتها

---

(١) انظر كتاب حول تفسير سورة الحُجُرات للشيخ عبد الله سراج الدين ص ٣٢٧ .

ساجدة لربها ، مُسَبِّحَةً لخالِقها ، مُتَّخِذة الكونَ كله مِحْراباً ومسجداً ، تَحِنُّ إلى بارِئها وتذرِف العَبَرات من أَجله ، وحين سَأَلها سائلٌ : « كيف بلغْتِ هذه المرتَبَة العالية؟ » فأَجابته : بِقَوْلي دائماً :

« اللَّهم إِني أَعوذ بك من كل شاغِلٍ يشغَلُني عنك ، ومن كل حائِلٍ يحوْل بيني وبينك » .

وكثيراً ماكانت تردِّد في مناجاتها :

« اللَّهم اجعل الجنة لأَحِبّائِك ، والنارَ لأعدائِك ، وأما أنا فَحَسْبي أنت » .

لقد كانتْ رضوان الله عليها تراقبُ الله في كل نَفَسٍ من أَنفاسها ، وفي كل حَرَكة من حركاتها ، لذا جاءت كراماتُها متناغِمة مع مَن سَبَقها من الصَّحابة والسَّلف الصَّالح ، في زُهْدِهم وَوَرَعهم .

وأَي كرامةٍ أَفضلُ من الاستقامة على شرع الله وصيانة حدوده؟!

* * *

رابعة تودع الحياة

رابعة تودع الحياة

الموت حقيقةٌ قاسية رهيبة ، فهو حُكْم الله في عباده كلهم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر : ٣٠] .

فسوف يتذوقُه كلُّ مخلوق ، لا فارقَ بين نفْس ونفْس ، وسوف يتجرَّع كلُّ واحد منّا هذا الكأس ، الذي يدور على الناس جميعاً . الموت يرسل سكراته قبل أن يأتي!

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق : ١٩] .

ويروى في الآثار[1] : « الأمراضُ والأوجاعُ كلُّها بريدُ الموت » ورُسُل الموت ، فإذا حان الأجلُ ، أتى ملك الموت بنفسه فقال : « أيها العبد! كم خبرٍ بعدَ خبر! وكم رسولٍ بعد

(١) انظر تنوير القلوب ص ٤٥١ .

رسول! وكم بريدٍ بعد بريد! أنا الخبرُ الذي ليس بعدي خبر ، وأنا الرسولُ الذي ليس بعدي رسول ، أجِبْ ربك طائِعاً أو مُكْرَهاً » .

فإذا قبض روحه وتصارَخوا عليه ، قال : « على من تَصْرُخون؟ وعلى من تَبْكون؟ فَوَاللهِ ما ظلمْتُ له أَجلاً ، ولا أَكلْتُ له رِزْقاً ؛ بل دعاه ربُّه ، فليَبْكِ الباكي على نفسه ، فإن لي فيكم عَوْداتٍ وعَوْداتٍ ، حتى لا أُبقي منكم أحداً » .

فيالِخطورة هذا الموت الذي ليس له دواء حتى يُداوىٰ به ، وليس له وسيلةٌ حتى يُرَدَّ ، ولا قوّة ولا شفاعة ولا تأجيل ، ولا مَفَرَّ من الاستسلام له ، نهايةُ كل حيٍّ من المخلوقات ، الذي قهر اللهُ به جبروتَ الجَبابِرة ومُلْكَ الأكاسِرة ، وظُلْمَ الظَّلَمة .

إنه الموت الذي يفرِّق بين الأحِبّة ، ولا يلتفتُ ولا يستجيبُ لصَرْخةِ ملهوفٍ ، ولا لِحسرةِ مفارِق .

إنه الموت الذي لا يبقي على وجه المعمورة أحداً ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : ٢٦] .

ولا ينفرد في الوجود والبقاء إلاَّ اللهُ الذي لا يغفل ولاينام ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

ولذلكم كان سيدنا لقمان يقول لابنه :

« يا بُني! أمرٌ لا تدري متى يلقاكَ ، فاستعدَّ له قبل أَن يفاجِئك » .

فما علينا ـ إخوةَ الإيمان والعقيدة ـ إلَّا أن نستعد لهذا الموت بالعمل الصالح وتقوى الله ، ولْنستعدَّ لهذا القبر الذي ينادي علينا كل يوم ويقول لنا : « ياابن آدم لاتتكبر على ظهري ، لأنني غداً سأضمُّك في بطني » .

وإن غداً لقريب ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود : ٨١] .

ينـــادي فـــي صبيحـــة كـــل يـــوم
لـــدوا للـــدُّوْدِ وابنـــوا للخـــراب

ويرحم الله القائل :

يانفس توبي! فإن الموت قد حانا
واعْصِ الهوى ، فالهوى مازال فتَّانا
فـــي كـــل يـــوم لنـــا ميْـــت نشيِّعُـــه
نحيـــي بمصـــرعِـــه آثـــارَ مـــوتـــانـــا

يانفس مالي وللأَموال أَتركُها خلفي
وأَخرجُ من دنياي عُريانا

(عرياناً) . . . لامال ، ولاولد ، ولاأَب ، ولاأُم ، ولاصاحب ، ولازوجة ، لأنه مكتوب على باب القبر : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

أَحْبَبْتُ أن أُقدِّمَ هذه المقدمة قبل الخوض في الحديث عن وفاة السيدة (رابعة)[١] ليكون لنا الموت عِظَة وعِبْرة قبل أن يأتينا يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خُلَّة ، والكافرون هم الظالمون . وإنه كما قال أحدهم :

صاحِ! لا تزلْ ذاكِرَ الموت
فنسيانه ضلالٌ مبين

وعودةٌ إلى السيدة الجليلة . . .

عاشتْ (رابعةُ) طويلاً ، وقد بارك الله لها في عُمرها ، وكانتْ طِوال حياتها زاهدةً عابدةً مُحِبةً ، بعيدةً عن الشُّهْرة ،

(١) اختَلف المؤرخون في تاريخ وفاتِها ، والأرجحُ أنها عاشَتْ وماتَتْ بالبَصْرة في سنة خمس وثمانين ومائة على أرجح الأقوال . رحمها الله تعالى ورضي عنها .

والمناصِب ، عاملةً في صَمْت لِربِّها وباريها جلّ وعلا .

ولْنصْغِ الآنَ إلى خادمتها عبدة تروي لنا حادثة وفاتها :

« لما حَضَرَتْ (رابعةَ) الوفاةُ ، دَعَتْني ، فقالتْ : « لا تؤذِني بموتي أحداً ، ولُفيني في جيبي هذه » ، قالت : « فكفّنّاها بتلك الجُبة وخمارِ صوفٍ كانت تلبَسُه » .

تقول دائرة المعارف الإسلامية[١] :

« وحينما حضرتْها الوفاةُ ، أحاطَ بها نفَرٌ من الصالحين ، فقالت لهم : « انهضوا واخرُجوا ، ودَعُوا الطريقَ مفتوحةً لرُسُل الله تعالى » ، فنهضوا وخرجوا ، فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت (رابعة) وهي تقول الشهادةَ ، فأجابها صوت :

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠] .

أجل ؛ أيتها النَفسُ العابدةُ ، الوَرِعة المُحِبةُ الزاهدةُ آنَ لكِ أن تحصُدي ثِمارَ عملِكِ ، بعد ما أفنيتِ عمرَكَ تَنْشُدين

---

(١) المجلد التاسع ، العدد الحادي عشر ص :٤٣٨ .

رضاءَ الله . لا ترغَبين بذلك جنَّة ، ولا ترهَبين النار ، ولكن كان هدفُك رؤيةَ الله جلّ في عُلاه ، وصَدَقَ الله إذ يقول :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] .

وحكي[١] أن رجلاً من البَصْرة بكى لشوقه حتى ذهبتْ عيناه ، ثم قال :

« إلهي إلى متى لا ألقاكَ ، فَبِعزَّتِك لو كانتْ بيني وبينك نارٌ تلتهب ما رجعتُ عنك بعونك وبتوفيقك حتى أصل إليك ، ولا أرضى منك بدونِك » .

فرابعةُ رضي الله عنها دائماً على استعداد لِلِقاء اللهِ لأنها كانت تعلم حق اليقين أن سِر السعادة يكْمن في رؤيته سبحانه وتعالى ، وأنه لا راحةَ لمؤمن إلا بِلِقاء الله ، ومن أَحَبّ لقاء الله أحبَّ اللهُ لقاءَه ، وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى قال :

« ياداودُ : بلِّغْ أهلَ أرضي : إني حبيبٌ لمَن أحبَّني ، وجليسٌ لِمَن جالسَني ، ومؤنسٌ لِمَن أَنِسَ بِذِكْري ، وصاحبٌ لِمَن صاحَبَني ، ومختارٌ لمَن اختارني ، ومطيعٌ لمَن أطاعني ،

---

(١) انظر تنوير القلوب ص : ٤٩٠ .

وما أحبَّني عبدٌ - أعلمُ ذلك يقيناً مِن قلبه - إلا قَبِلْتُهُ لنفسي ، وأحببتُهُ حُباً لا يتقدَّم عليه أحدٌ من خَلْقي ، من طَلَبَني بالحق وجَدَني ، ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا أَهلَ الأَرضِ ما أَنتم عليه من غرورها ، وهَلُمُّوا إلى كرامتي ومصاحبَتي ، واتَنِسُوا فِيَّ أُونِسْكم ، وأُسارعُ إلى محبَّتِكم ، فإني خلقتُ طِينةَ أحِبّائي من طِينةِ إبراهيمَ خليلي ، وموسى نجيِّي ، ومحمدٍ صَفْوتي ، إني خلقتُ قلوبَ المشتاقين مِن نوري ، ونعَّمْتُها بجلالي » .

ولذلك يُروى أَن إبراهيم عليه السّلام قال لمَلك الموت إذ جاءه يقبضُ روحَه : « هل رأيتَ خليلاً يُميتُ خليلَه؟ » فأوحى الله تعالى إليه : « هل رأيتَ مُحِباً يَكرَهُ لقاءَ حبيبه »؟ فقال : يا مَلَكَ الموت الآنَ فاقبِضْ » .

تقول دائرة المعارف الإسلامية[1] :

« رُئِيَتْ رابعةُ في المنام ، فَسُئِلتْ : بماذا أجَبْتِ أنكراً ونكيراً؟ » فقالت : « أتاني أنكرُ ونكيرُ فَسَألاني : « من ربكِ؟ » .

---

(١) المجلد التاسع العدد الحادي عشر ص ٤٣٨ .

فأجبْتُ : « أيها المَلَكانِ اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى : « أنتَ تأمُرُ بسؤالي؟ أنا المرأة العجوز بين هذا العَدَدِ من عبيدِك ، أنا التي لم أعرفْ غيرَك! أفَنَسِيتُك مرةً حتى تبعَثَ إليَّ بأنكر ونكير يسألانني »؟! .

وهكذا سافرتْ (رابعةُ) إلى الله ، تاركةً في الحياة عبيرَها وشذاها . أجل ؛ ماتت التي كانت كثيراً ماتقول :

« يارب أتُحْرِقُ بالنار قلباً يحبك ، ولساناً يذكُرُك ، وعَبْداً يخشاك »؟! .

ماتت التي قالت : « يارب اجعلِ النار لأعدائِكَ ، والجنّةَ لأحِبائِك ، وأما أنا فَحَسْبِي أنت » .

ولحقتْ (رابعةُ) بالملأ الأعلى ، وصعدَتْ على أَجنحة الشوق إليه ، وفاضت روحُها إلى بارئِها ، مغتَبِطَةً بما بَذَلَتْ وأعْطَتْ ، وبما زَهِدَتْ وعَفَّتْ ، لِتنعَمَ بما أعدَّ اللهُ لها من جِنانٍ ونعيم .

لكنني أقول : لئن كانتْ (رابعةُ) قد ماتتْ ؛ فإن ذِكْراها مازالَ حياً ، خالداً ، يعيشُ في قَلْب كل مؤمن مُحِبّ ، فَلَكِ اللهُ يارابعةُ! يامَن بِذِكْرِكِ تنتعشُ النفوسُ! وصَدَقَ الشاعرُ إذ يقول :

مــوتُ التقــيِّ حيــاةٌ لا انقطــاعَ لهــا

قد ماتَ قومٌ وهُمْ في الناس أحياء

رابعةُ . . إلى رحمة الله يارابعةُ ، إنَّ القلبَ ليَحْزَن ، وإنَّ العينَ لتَدْمَع ، وإنَّا على فُراقِكِ لمَحْزونون ، ولا نقول إلاَّ ما يُرضي ربَّنا .

﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

* * *

المحتوى

مقدمة الطبعة الثانية ٥
دعاء ٩
الإهداء ١١
المقدمة ١٣
نشأة رابعة ١٧
مناجاة رابعة ٣٥
العذراء البتول ٤٧
رابعة والتَّصوف ٦١
رابعة تذكر الله ٧٣
الزهد عند رابعة ٨٧
الحب عند رابعة ١٠٥
الفناء عند رابعة ١٢١
كرامات رابعة ١٣٧
رابعة تودع الحياة ١٥٣
المحتوى ١٦٥

حياة حافلة غنيّة ، وسيرة طيّبة تُعَدُّ مأثرة تاريخية ، عاشت صاحبتها لله وحده ، فأفرغت قلبها مما سواه ، وإن أبغضت ، أبغضت ـ مشفقة ـ بيغضه :

« إلهي أنا يتيمة معذَّبة ، أرسف في قيود الرِّق ، وسوف أتحمل كلَّ ألم وأصبر عليه ، ولكن عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلم روحي ، ويفكك أوصال الصَّبر في نفسي ، منشؤه ريب يدور في خلدي : هل أنت راضٍ عنِّي ؟ تلك هي غايتي » .

« يارب تركت الناس كلَّهم ورائي ، وجئت إليك وحيداً ، فلا تطردني من رحمتك يا أرحم الراحمين » .

« اللهم إني أعوذ بكَ من كلِّ ما يشغلني عنك ، ومن كلِّ حائل يحول بيني وبينك » .

إنها مناجاة العارفين المحبِّين ، ممَّن عاشوا مقام (الإحسان) .

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا

ص.ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢